لونه أزرق بطريقة محزنة

محمد صلاح العزب

لونُه أزرق بطريقة مُحزنة

قِصص

تأليف

محمد صلاح العَزَب

فهرس

إهـــداء ٦

سراويل قصيرة

لا أحد يرسب في الأول الابتدائي ٨

الجانب الآخر من المصباح ١٢

فصل في الوضوء ١٣

الأستاذ "عبد الرازق" يعمل مفتشًا ١٤

الجلوس على حافة الضحك ١٧

وكانت حقيبتي لا تزال بالداخل ٢٢

داخل الخارج ٢٤

في الظروف العادية لا تتسع الملابس ٣٠

ربع جنيه يسعد الحمامة........................ ٣٥

محمـد........................ ٤٠

شارب أصفر خفيف

إضاءة مبهرة........................ ٤٢

إطـ ـار ٤٦
درجة رخامية ترتفع قليلاً عن الأرض ٤٧
لونه أزرق بطريقة محزنة ٤٩
عرض لممثل وحيد ٥١
مفتاح واحد فقط ٥٢
جـ ـدران ٥٧
حفرة ضيقة بعمق رأس رجل.......................... ٦٠
ربطة عنق سوداء ٦٤
الجنـ ـة ٦٥
تخطي العتبة الحجرية ٦٧

الخروج مع القافلة

إعادة تلوين...................................... ٧١
انشطار.. ٧٢
فاصل موسيقي ٧٦
عند المقدرة...................................... ٧٩
سلالم خلفية...................................... ٨٠

مسمار يشبك في قميصك ٨٣
هامش عن الناصعين ٨٦
لحن جنائزي رتيب ٨٧
الجحر.. مرة ثانية.................................. ٨٩
بعد أن يرتد إليك طرفك ٩٢



إهـــداء

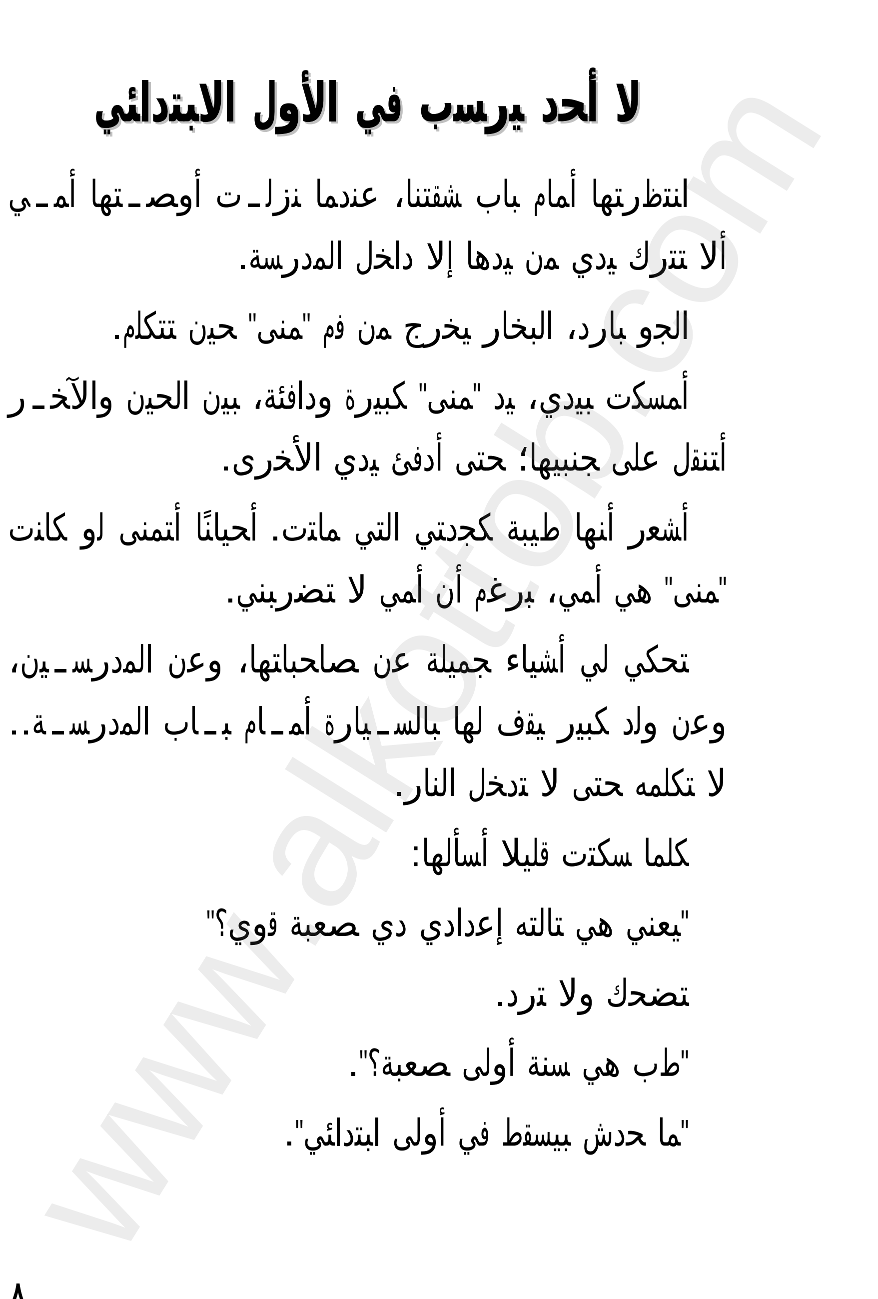
إلى:

أبي.. أمي.. أحمد.. إيمان،

المختَصر المفيد لهذه الدنيا الكبيرة.

محمد

سراويل قصيرة



لا أحد يرسب في الأول الابتدائي

انتظرتها أمام باب شقتنا، عندما نزلـت أوصـتها أمـي ألا تترك يدي من يدها إلا داخل المدرسة.

الجو بارد، البخار يخرج من فم "منى" حين تتكلم.

أمسكت بيدي، يد "منى" كبيرة ودافئة، بين الحين والآخـر أتنقل على جنبيها؛ حتى أدفئ يدي الأخرى.

أشعر أنها طيبة كجدتي التي ماتت. أحيانًا أتمنى لو كانت "منى" هي أمي، برغم أن أمي لا تضربني.

تحكي لي أشياء جميلة عن صاحباتها، وعن المدرسـين، وعن ولد كبير يقف لها بالسـيارة أمـام بـاب المدرسـة.. لا تكلمه حتى لا تدخل النار.

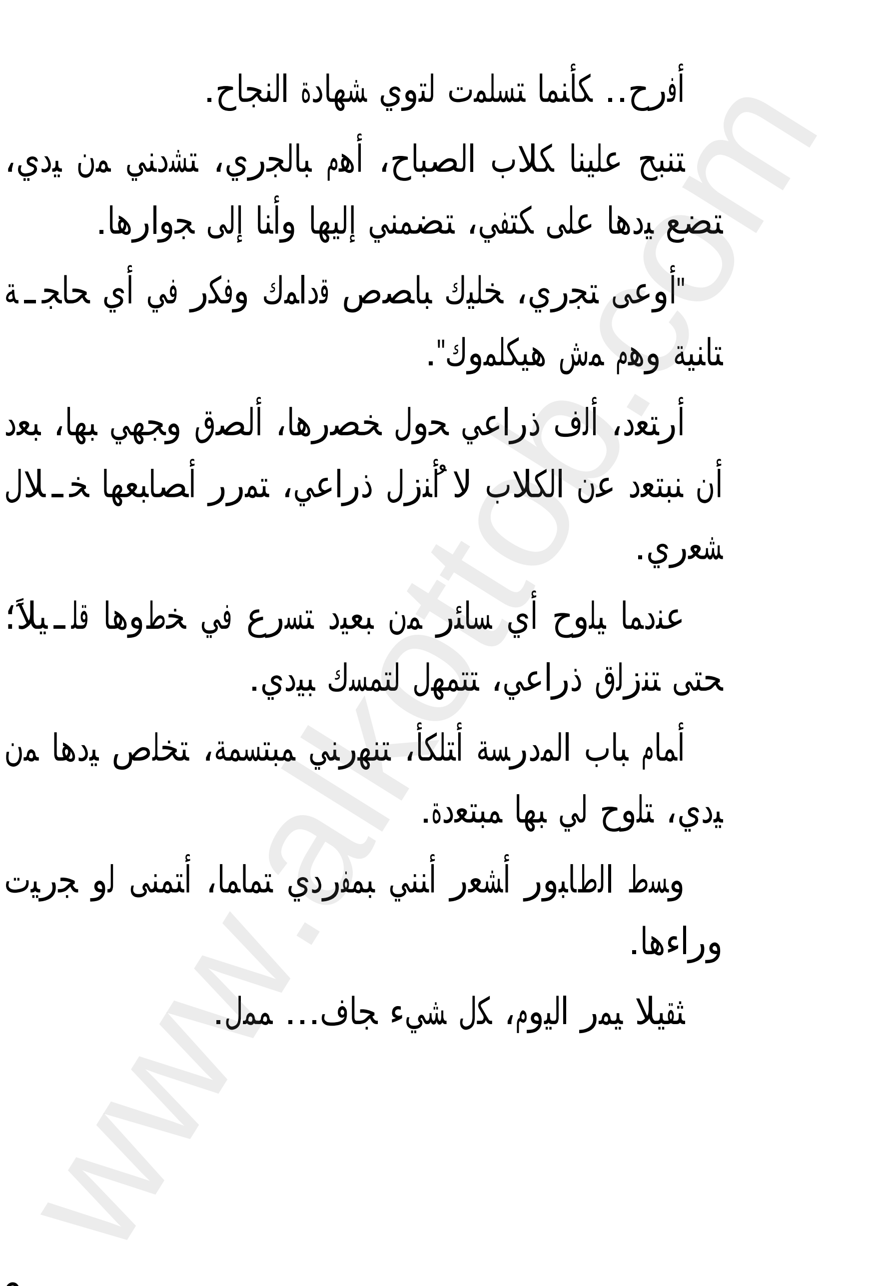
كلما سكتت قليلا أسألها:

"يعني هي تالته إعدادي دي صعبة قوي؟"

تضحك ولا ترد.

"طب هي سنة أولى صعبة؟".

"ما حدش بيسقط في أولى ابتدائي".



أفرح.. كأنما تسلمت لتوي شهادة النجاح.

تنبح علينا كلاب الصباح، أهم بالجري، تشدني من يدي، تضع يدها على كتفي، تضمني إليها وأنا إلى جوارها.

"أوعى تجري، خليك باصص قدامك وفكر في أي حاجـة تانية وهم مش هيكلموك".

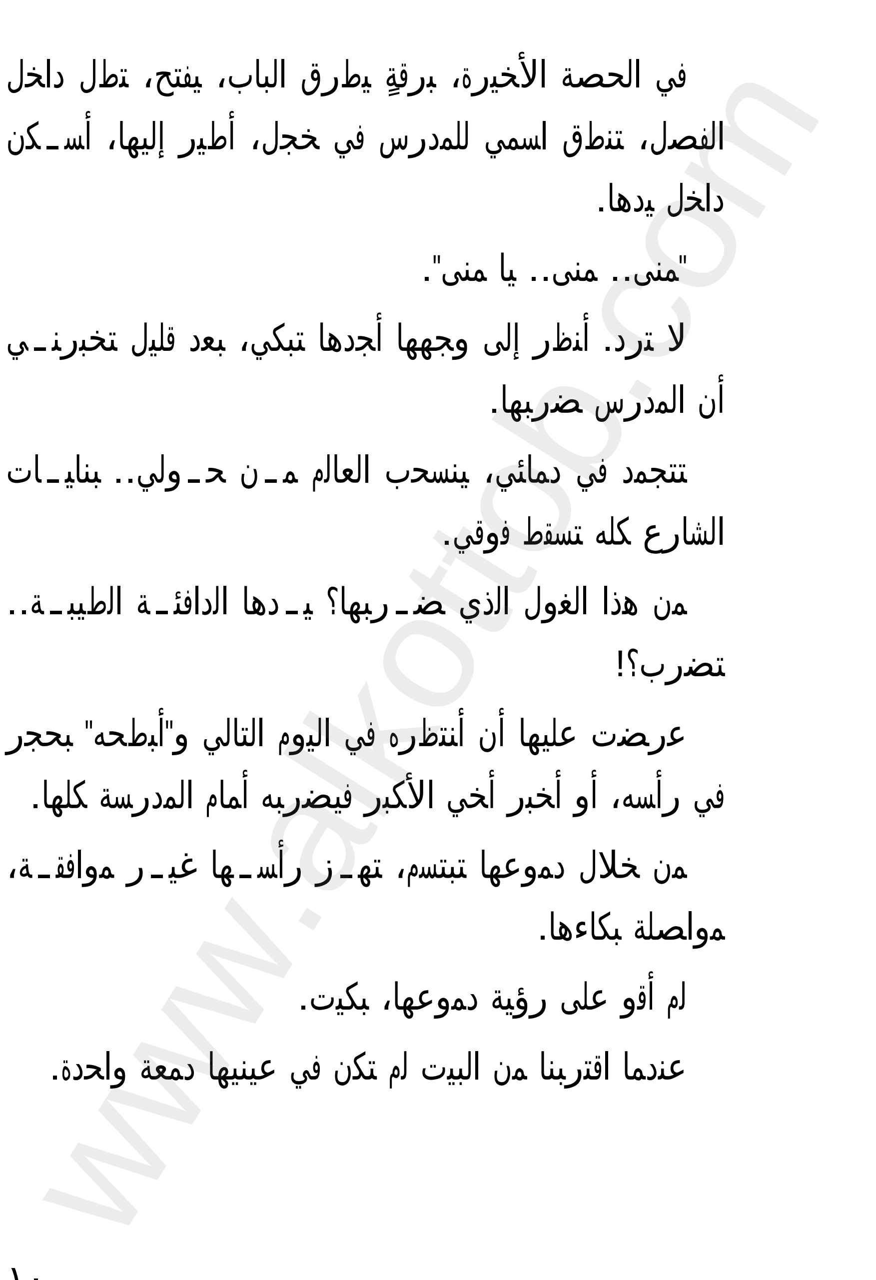
أرتعد، ألف ذراعي حول خصرها، ألصق وجهي بها، بعد أن نبتعد عن الكلاب لا أُنزل ذراعي، تمرر أصابعها خـلال شعري.

عندما يلوح أي سائر من بعيد تسرع في خطوها قلـيلاً؛ حتى تنزلق ذراعي، تتمهل لتمسك بيدي.

أمام باب المدرسة أتلكأ، تنهرني مبتسمة، تخلص يدها من يدي، تلوح لي بها مبتعدة.

وسط الطابور أشعر أنني بمفردي تماما، أتمنى لو جريت وراءها.

ثقيلا يمر اليوم، كل شيء جاف... ممل.



في الحصة الأخيرة، بِرقةٍ يطرق الباب، يفتح، تطل داخل الفصل، تنطق اسمي للمدرس في خجل، أطير إليها، أسـكن داخل يدها.

"منى.. منى.. يا منى".

لا ترد. أنظر إلى وجهها أجدها تبكي، بعد قليل تخبرنـي أن المدرس ضربها.

تتجمد في دمائي، ينسحب العالم مـن حـولي.. بنايـات الشارع كله تسقط فوقي.

من هذا الغول الذي ضـربها؟ يـدها الدافئـة الطيبـة.. تضرب؟!

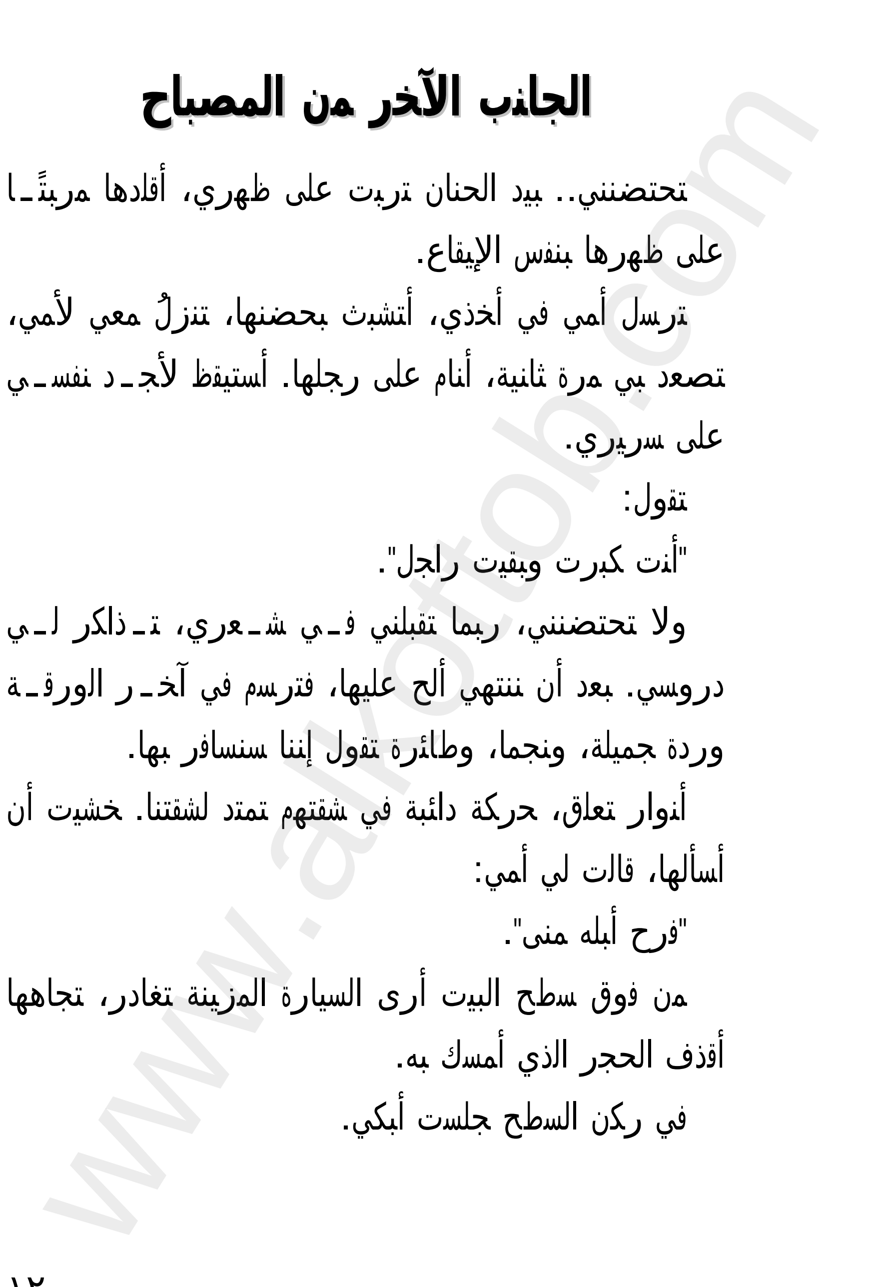
عرضت عليها أن أنتظره في اليوم التالي و"أبطحه" بحجر في رأسه، أو أخبر أخي الأكبر فيضربه أمام المدرسة كلها.

من خلال دموعها تبتسم، تهـز رأسـها غيـر موافقـة، مواصلة بكاءها.

لم أقو على رؤية دموعها، بكيت.

عندما اقتربنا من البيت لم تكن في عينيها دمعة واحدة.

بحنان زائد تربت على ظهري، جاهـدة تحـاول إيقـاف دموعي.. كيف؟.. أنا نفسي لا أستطيع.



الجانب الآخر من المصباح

تحتضنني.. بيد الحنان تربت على ظهري، أقلدها مربتًا على ظهرها بنفس الإيقاع.

ترسل أمي في أخذي، أتشبث بحضنها، تنزلُ معي لأمي، تصعد بي مرة ثانية، أنام على رجلها. أستيقظ لأجد نفسي على سريري.

تقول:

"أنت كبرت وبقيت راجل".

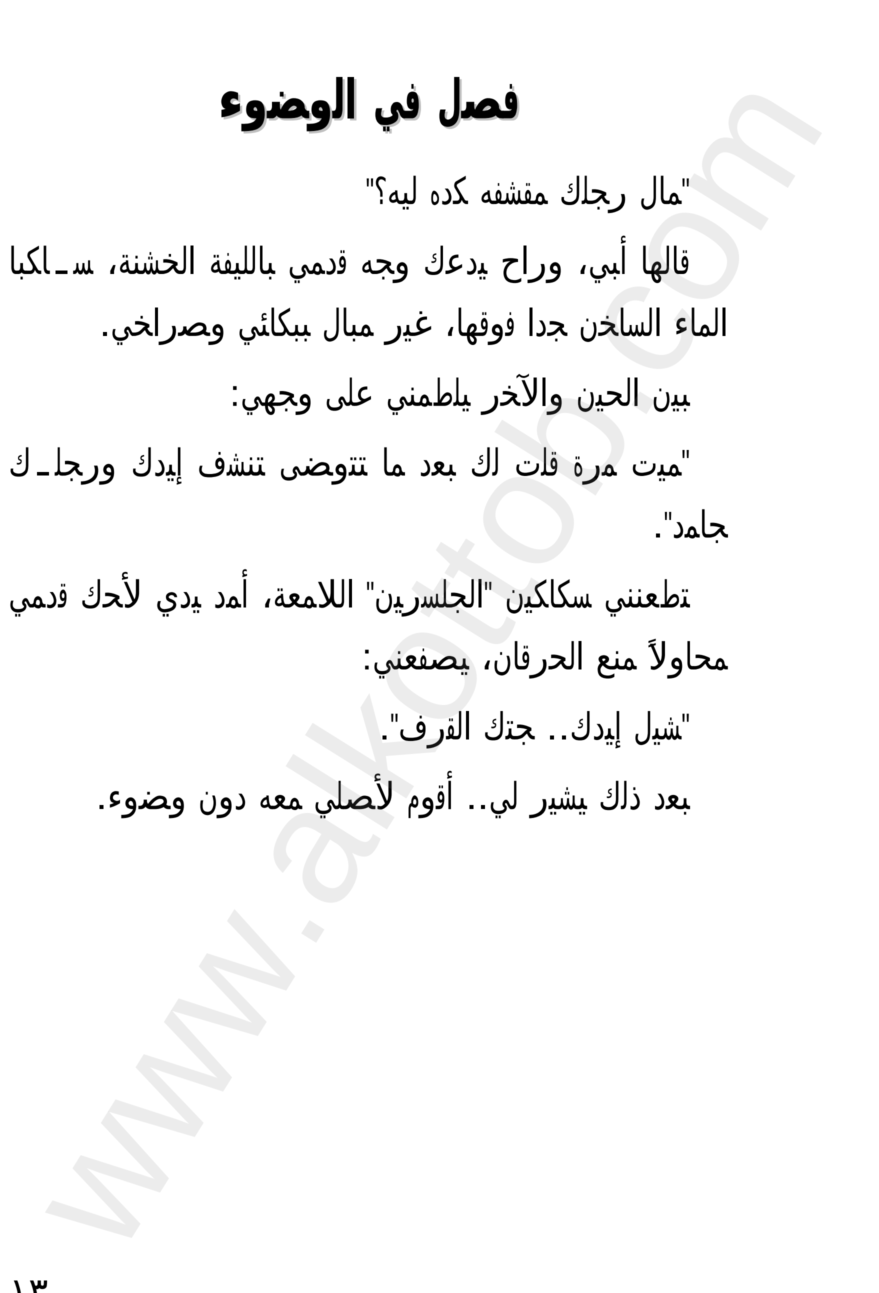
ولا تحتضنني، ربما تقبلني في شعري، تذاكر لي دروسي. بعد أن ننتهي ألح عليها، فترسم في آخر الورقة وردة جميلة، ونجما، وطائرة تقول إننا سنسافر بها.

أنوار تعلق، حركة دائبة في شقتهم تمتد لشقتنا. خشيت أن أسألها، قالت لي أمي:

"فرح أبله منى".

من فوق سطح البيت أرى السيارة المزينة تغادر، تجاهها أقذف الحجر الذي أمسك به.

في ركن السطح جلست أبكي.



فصل في الوضوء

"مال رجلك مقشفه كده ليه؟"

قالها أبي، وراح يدعك وجه قدمي بالليفة الخشنة، ســاكبا الماء الساخن جدا فوقها، غير مبال ببكائي وصراخي.

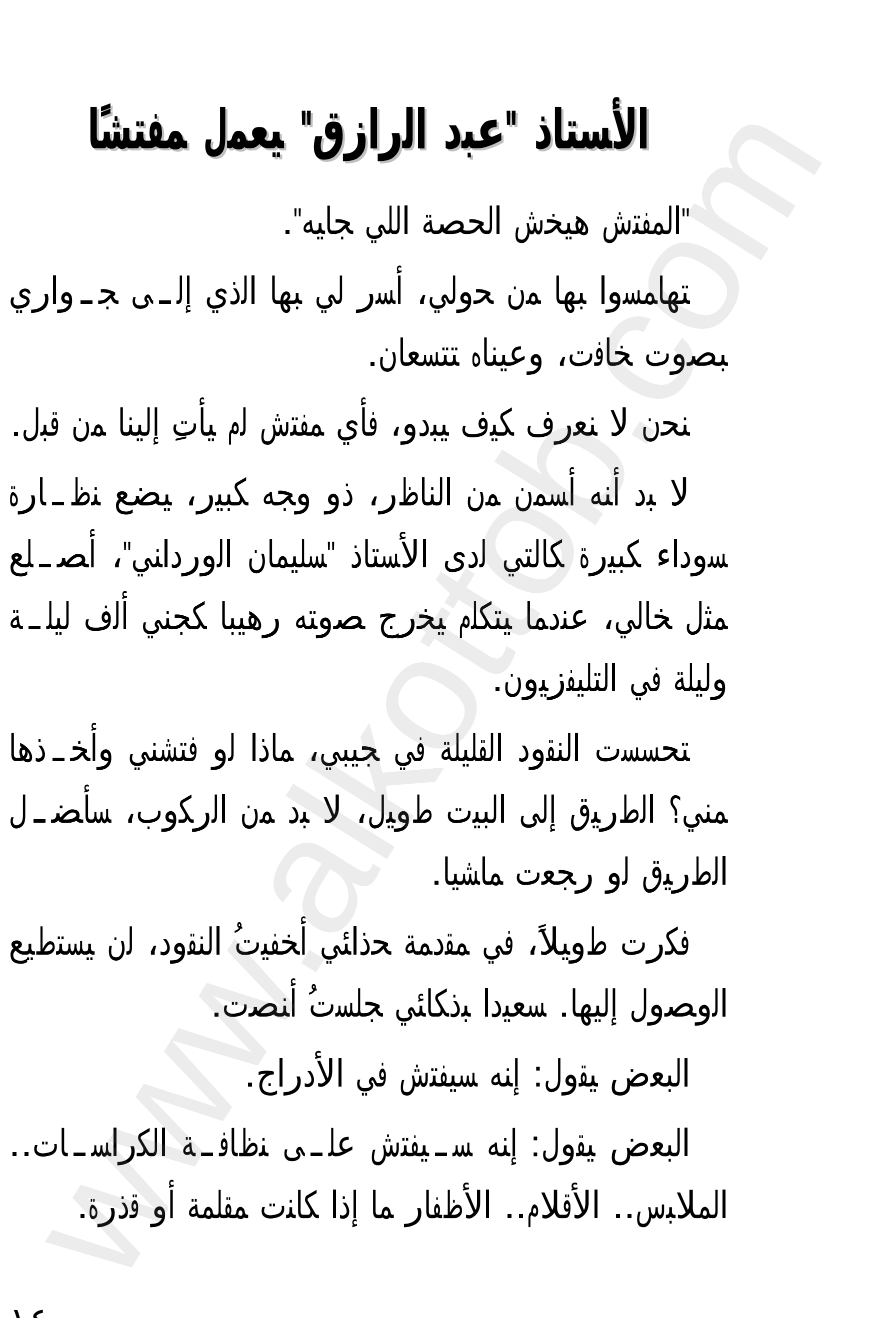
بين الحين والآخر يلطمني على وجهي:

"ميت مرة قلت لك بعد ما تتوضى تنشف إيدك ورجلــك جامد".

تطعنني سكاكين "الجلسرين" اللامعة، أمد يدي لأحك قدمي محاولاً منع الحرقان، يصفعني:

"شيل إيدك.. جتك القرف".

بعد ذلك يشير لي.. أقوم لأصلي معه دون وضوء.



الأستاذ "عبد الرازق" يعمل مفتشًا

"المفتش هيخش الحصة اللي جايه".

تهامسوا بها من حولي، أسر لي بها الذي إلى جواري بصوت خافت، وعيناه تتسعان.

نحن لا نعرف كيف يبدو، فأي مفتش لم يأتِ إلينا من قبل.

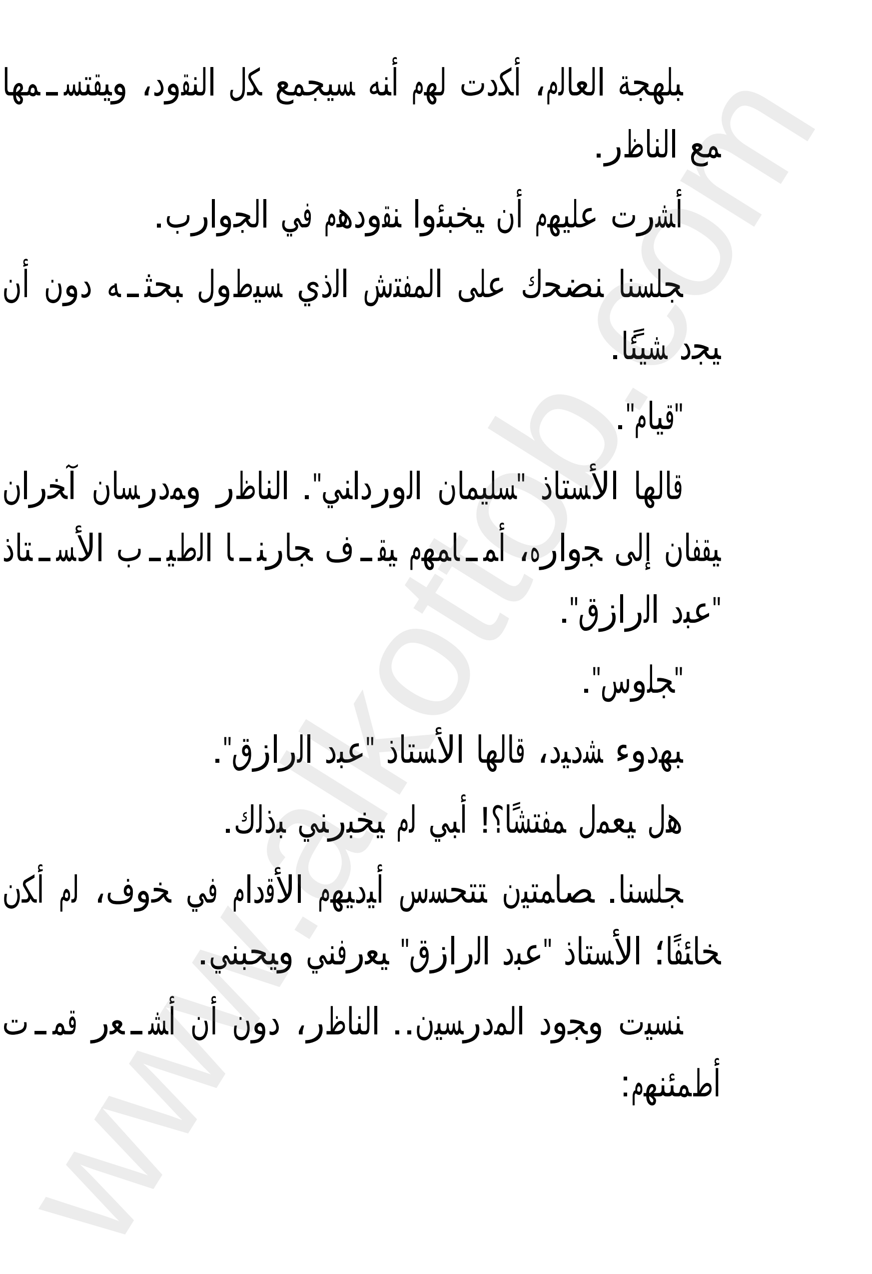
لا بد أنه أسمن من الناظر، ذو وجه كبير، يضع نظارة سوداء كبيرة كالتي لدى الأستاذ "سليمان الورداني"، أصلع مثل خالي، عندما يتكلم يخرج صوته رهيبا كجني ألف ليلة وليلة في التليفزيون.

تحسست النقود القليلة في جيبي، ماذا لو فتشني وأخذها مني؟ الطريق إلى البيت طويل، لا بد من الركوب، سأضل الطريق لو رجعت ماشيا.

فكرت طويلاً، في مقدمة حذائي أخفيتُ النقود، لن يستطيع الوصول إليها. سعيدا بذكائي جلستُ أنصت.

البعض يقول: إنه سيفتش في الأدراج.

البعض يقول: إنه سيفتش على نظافة الكراسات.. الملابس.. الأقلام.. الأظفار ما إذا كانت مقلمة أو قذرة.



بلهجة العالم، أكدت لهم أنه سيجمع كل النقود، ويقتسـمها مع الناظر.

أشرت عليهم أن يخبئوا نقودهم في الجوارب.

جلسنا نضحك على المفتش الذي سيطول بحثـه دون أن يجد شيئًا.

"قيام".

قالها الأستاذ "سليمان الورداني". الناظر ومدرسان آخران يقفان إلى جواره، أمـامهم يقـف جارنـا الطيـب الأسـتاذ "عبد الرازق".

"جلوس".

بهدوء شديد، قالها الأستاذ "عبد الرازق".

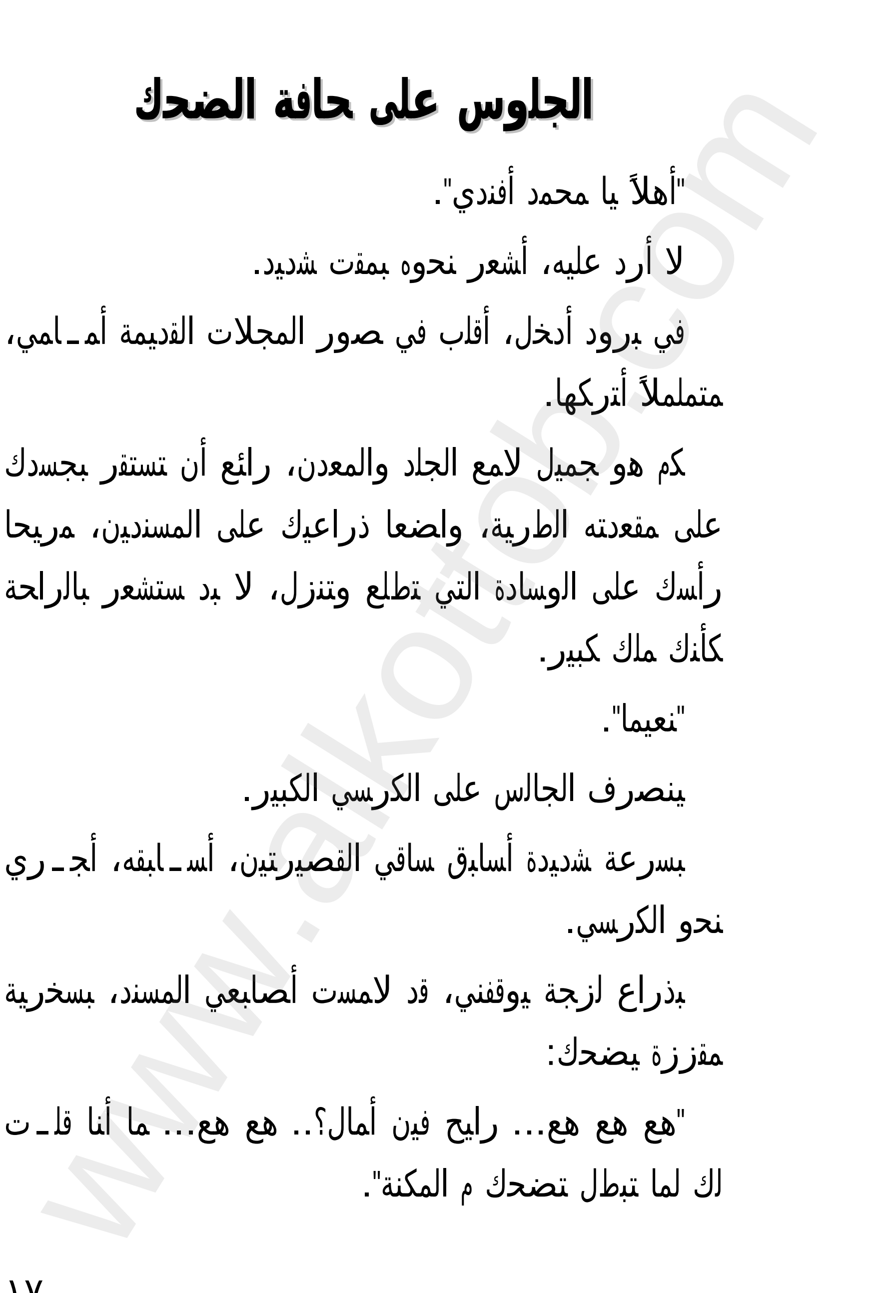
هل يعمل مفتشًا؟! أبي لم يخبرني بذلك.

جلسنا. صامتين نتحسس أيديهم الأقدام في خوف، لم أكن خائفًا؛ الأستاذ "عبد الرازق" يعرفني ويحبني.

نسيت وجود المدرسين.. الناظر، دون أن أشـعر قمـت أطمئنهم:

"طلعوا الفلوس ما تخافوش.. الأستاذ "عبد الرازق" طيـب خالص ومش....".

التفتُ مشيرا إليه، طالعتني عيـونهم المحملقـة وعصـا الأستاذ "سليمان الورداني" الكبيرة.



الجلوس على حافة الضحك

"أهلاً يا محمد أفندي".

لا أرد عليه، أشعر نحوه بمقت شديد.

في برود أدخل، أقلب في صور المجلات القديمة أمـامي، متململاً أتركها.

كم هو جميل لامع الجلد والمعدن، رائع أن تستقر بجسدك على مقعدته الطرية، واضعا ذراعيك على المسندين، مريحا رأسك على الوسادة التي تطلع وتنزل، لا بد ستشعر بالراحة كأنك ملك كبير.

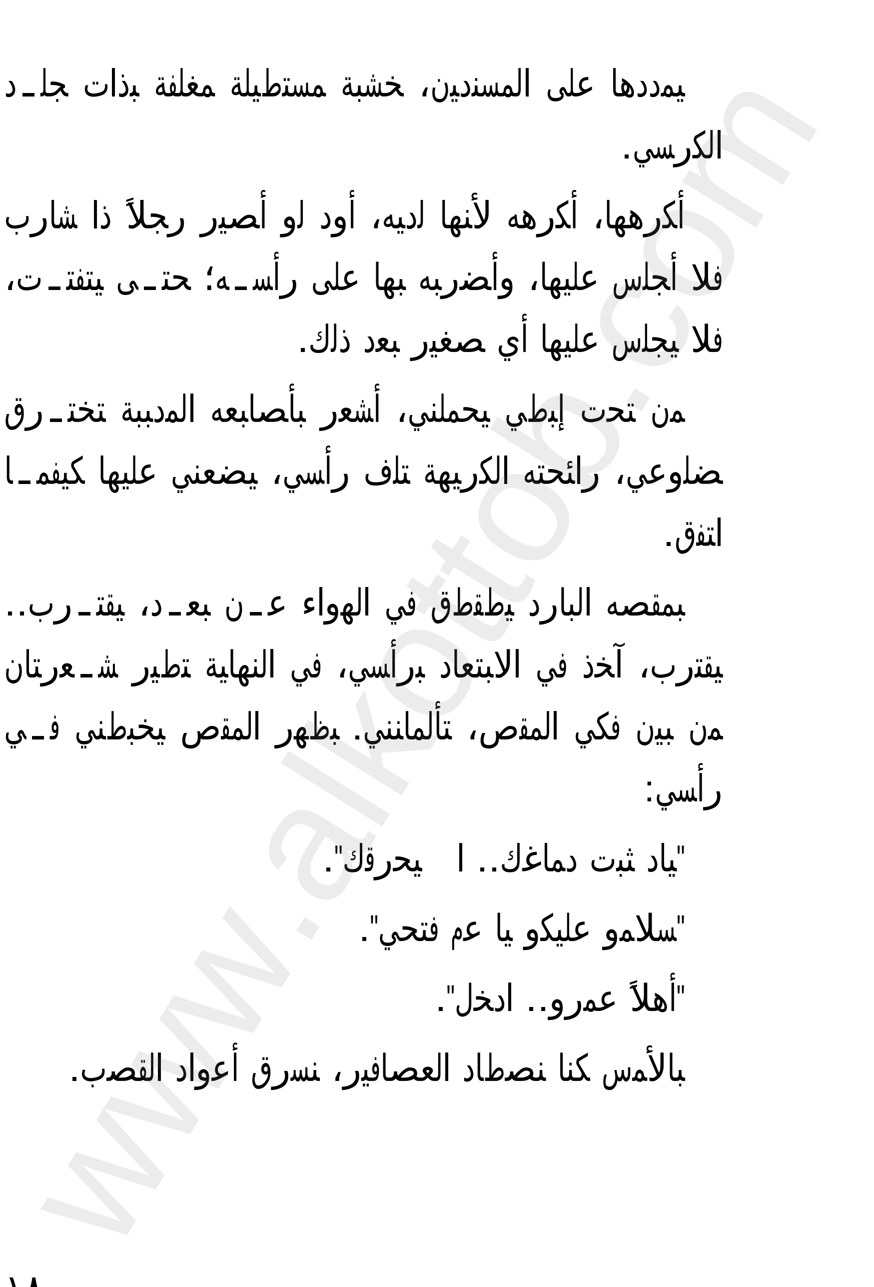
"نعيما".

ينصرف الجالس على الكرسي الكبير.

بسرعة شديدة أسابق ساقي القصيرتين، أسـابقه، أجـري نحو الكرسي.

بذراع لزجة يوقفني، قد لامست أصابعي المسند، بسخرية مقززة يضحك:

"هع هع هع... رايح فين أمال؟.. هع هع... ما أنا قلـت لك لما تبطل تضحك م المكنة".



يمددها على المسندين، خشبة مستطيلة مغلفة بذات جلـد الكرسي.

أكرهها، أكرهه لأنها لديه، أود لو أصير رجلاً ذا شارب فلا أجلس عليها، وأضربه بها على رأسـه؛ حتـى يتفتـت، فلا يجلس عليها أي صغير بعد ذلك.

من تحت إبطي يحملني، أشعر بأصابعه المدببة تختـرق ضلوعي، رائحته الكريهة تلف رأسي، يضعني عليها كيفمـا اتفق.

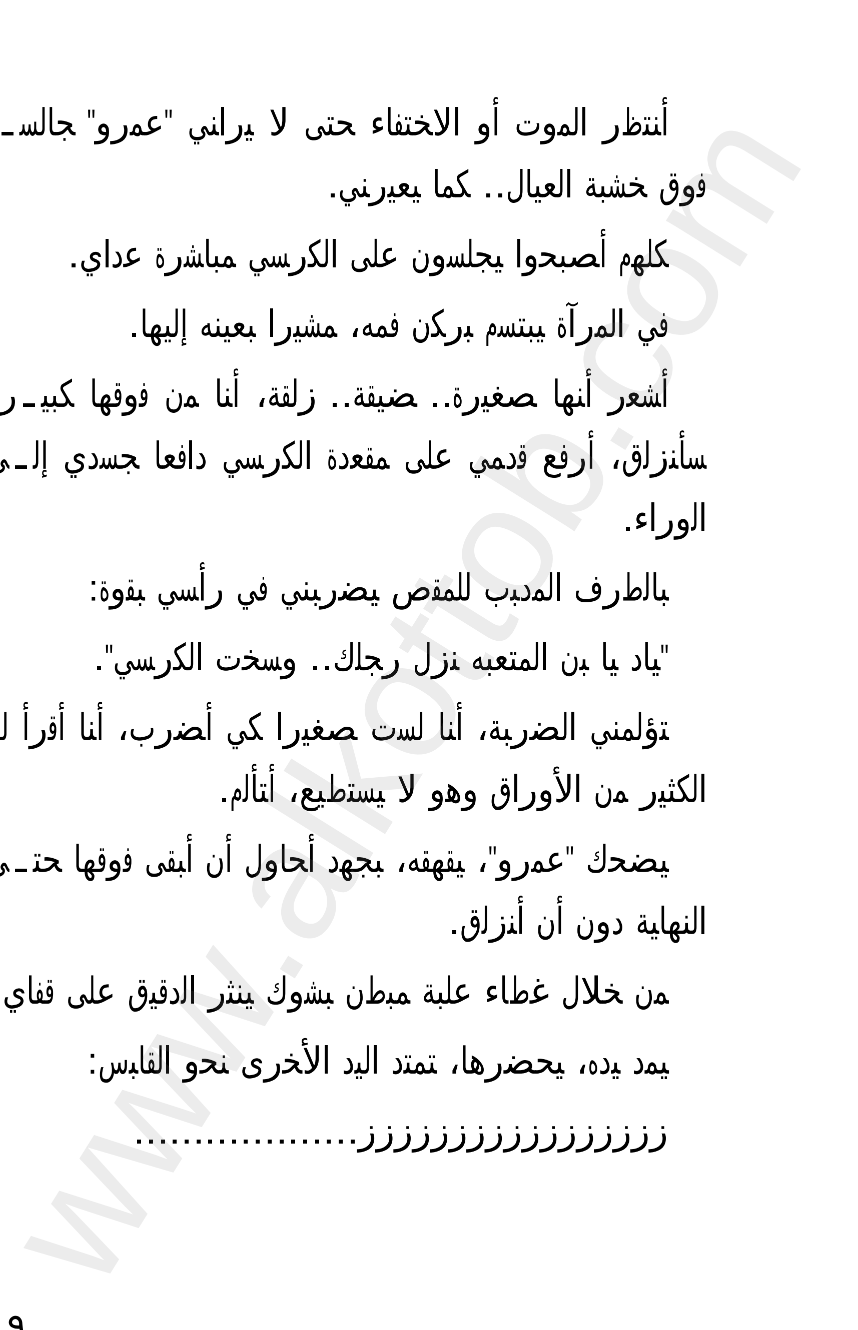
بمقصه البارد يطقطق في الهواء عـن بعـد، يقتـرب.. يقترب، آخذ في الابتعاد برأسي، في النهاية تطير شـعرتان من بين فكي المقص، تألمانني. بظهر المقص يخبطني فـي رأسي:

"ياد ثبت دماغك.. ا يحرقك".

"سلامو عليكو يا عم فتحي".

"أهلاً عمرو.. ادخل".

بالأمس كنا نصطاد العصافير، نسرق أعواد القصب.



أنتظر الموت أو الاختفاء حتى لا يراني "عمرو" جالسـا فوق خشبة العيال.. كما يعيرني.

كلهم أصبحوا يجلسون على الكرسي مباشرة عداي.

في المرآة يبتسم بركن فمه، مشيرا بعينه إليها.

أشعر أنها صغيرة.. ضيقة.. زلقة، أنا من فوقها كبيـر، سأنزلق، أرفع قدمي على مقعدة الكرسي دافعا جسدي إلـى الوراء.

بالطرف المدبب للمقص يضربني في رأسي بقوة:

"ياد يا بن المتعبه نزل رجاك.. وسخت الكرسي".

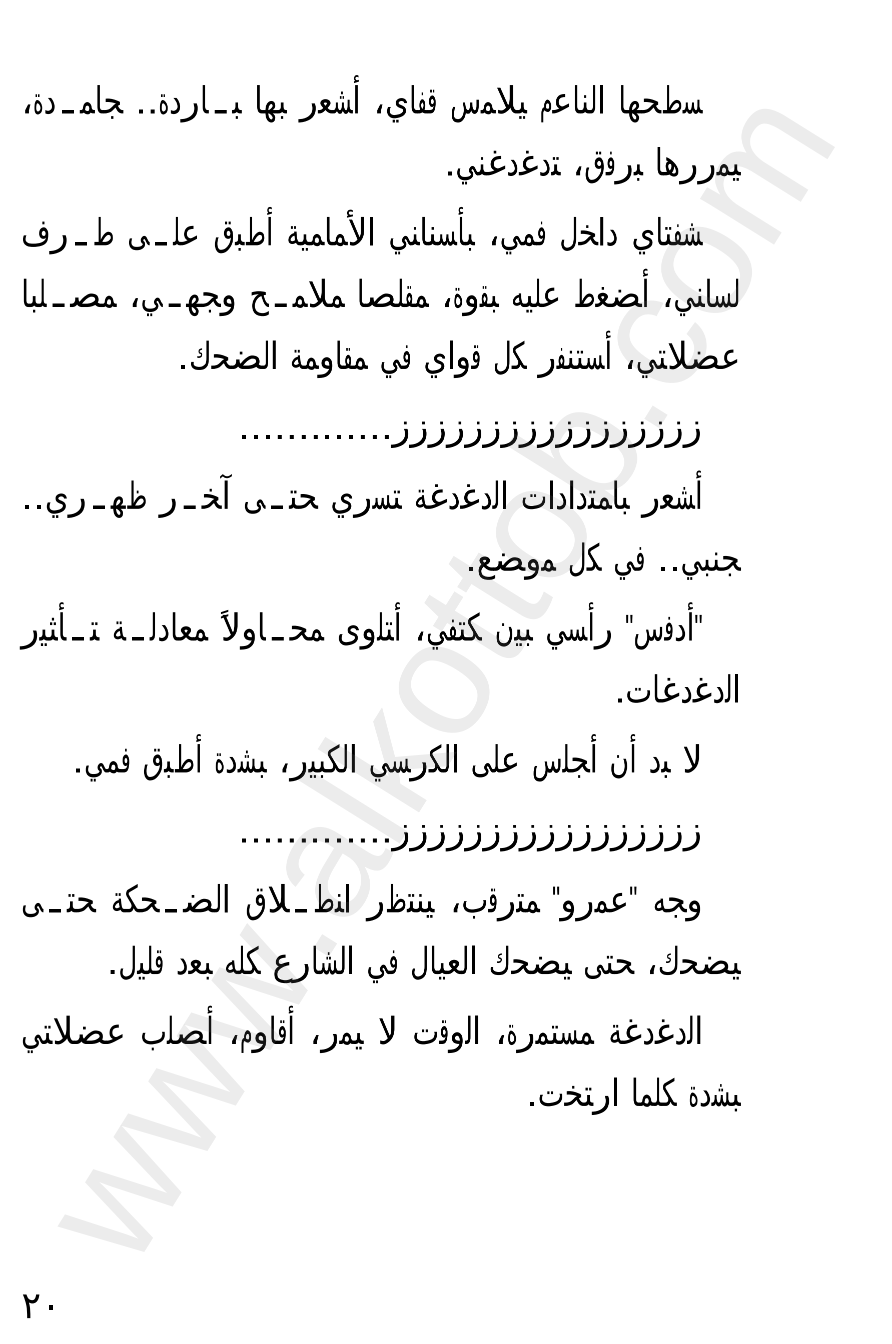
تؤلمني الضربة، أنا لست صغيرا كي أضرب، أنا أقرأ له الكثير من الأوراق وهو لا يستطيع، أتألم.

يضحك "عمرو"، يقهقه، بجهد أحاول أن أبقى فوقها حتـى النهاية دون أن أنزلق.

من خلال غطاء علبة مبطن بشوك ينثر الدقيق على قفاي.

يمد يده، يحضرها، تمتد اليد الأخرى نحو القابس:

ززززززززززززززز...................



سطحها الناعم يلامس قفاي، أشعر بها بـاردة.. جامـدة، يمررها برفق، تدغدغني.

شفتاي داخل فمي، بأسناني الأمامية أطبق علـى طـرف لساني، أضغط عليه بقوة، مقلصا ملامـح وجهـي، مصـلبا عضلاتي، أستنفر كل قواي في مقاومة الضحك.

ززززززززززززززز.............

أشعر بامتدادات الدغدغة تسري حتـى آخـر ظهـري.. جنبي.. في كل موضع.

"أدفس" رأسي بين كتفي، أتلوى محـاولاً معادلـة تـأثير الدغدغات.

لا بد أن أجلس على الكرسي الكبير، بشدة أطبق فمي.

ززززززززززززززز.............

وجه "عمرو" مترقب، ينتظر انطـلاق الضـحكة حتـى يضحك، حتى يضحك العيال في الشارع كله بعد قليل.

الدغدغة مستمرة، الوقت لا يمر، أقاوم، أصاب عضلاتي بشدة كلما ارتخت.

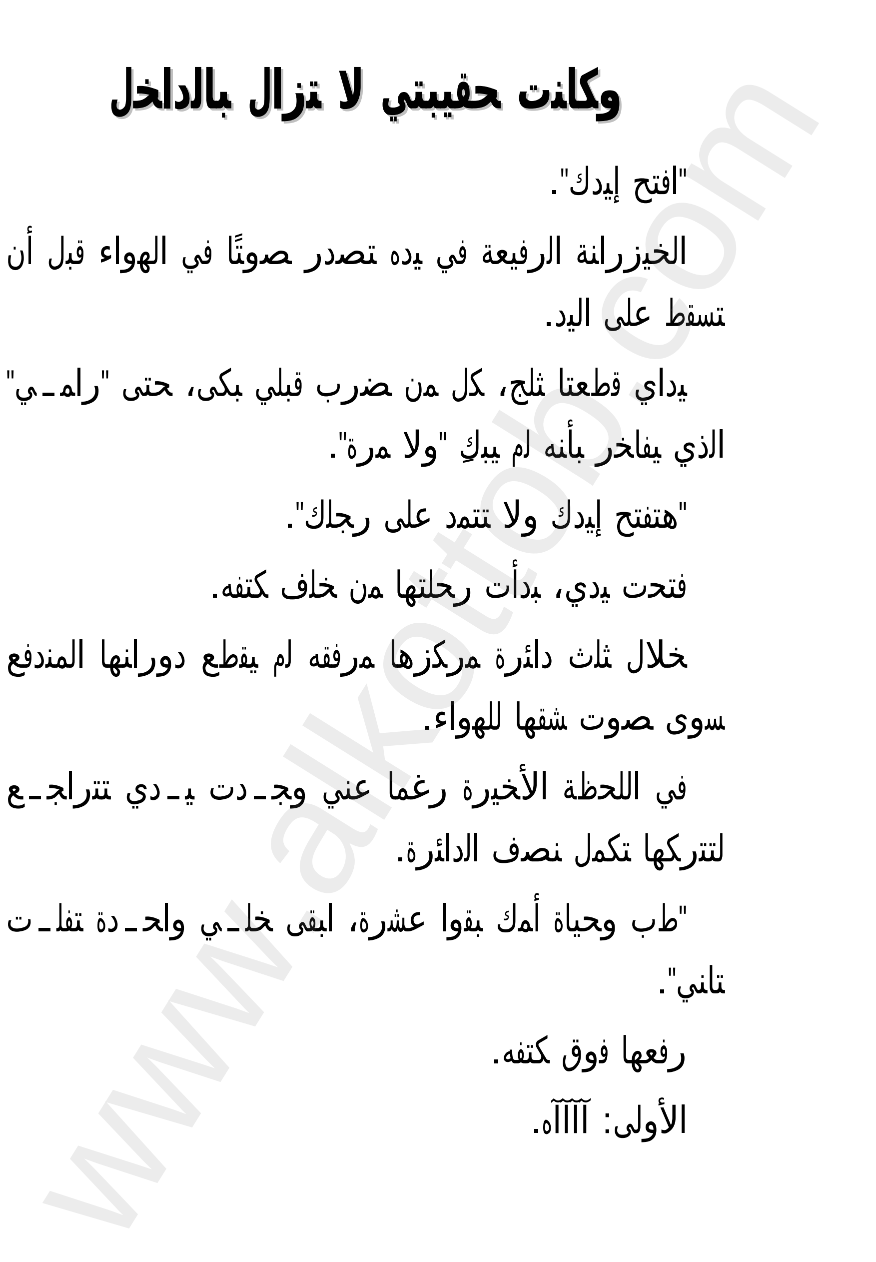
سكتت "المكنة"، لم أضـحك، نجحـت.. نجحـت، عينـا "عمرو" منكسرتان، بعد ذلك سأجلس فوق الكرسي.. مباشرة. فجأة.

زززززززززززززززز.............

"هئ".. خافتة.. منفلتة.. مبتـورة.. مؤلمـة، كالبكـاء.. كالصدمة.. كالانهيار.. كالعجز.

أبطل "المكنة" ضاحكًا، ضحك "عمرو" حتى سـقط كـل العيال في الشارع على أقفيتهم.

من باب "الصالون" خرجت جاريا دون أن أعطي النقـود لـ"عم فتحي" حتى لا يرى "عمرو" دموعي.



وكانت حقيبتي لا تزال بالداخل

"افتح إيدك".

الخيزرانة الرفيعة في يده تصدر صوتًا في الهواء قبل أن تسقط على اليد.

يداي قطعتا ثلج، كل من ضرب قبلي بكى، حتى "رامـي" الذي يفاخر بأنه لم يبكِ "ولا مرة".

"هتفتح إيدك ولا تتمد على رجلك".

فتحت يدي، بدأت رحلتها من خلف كتفه.

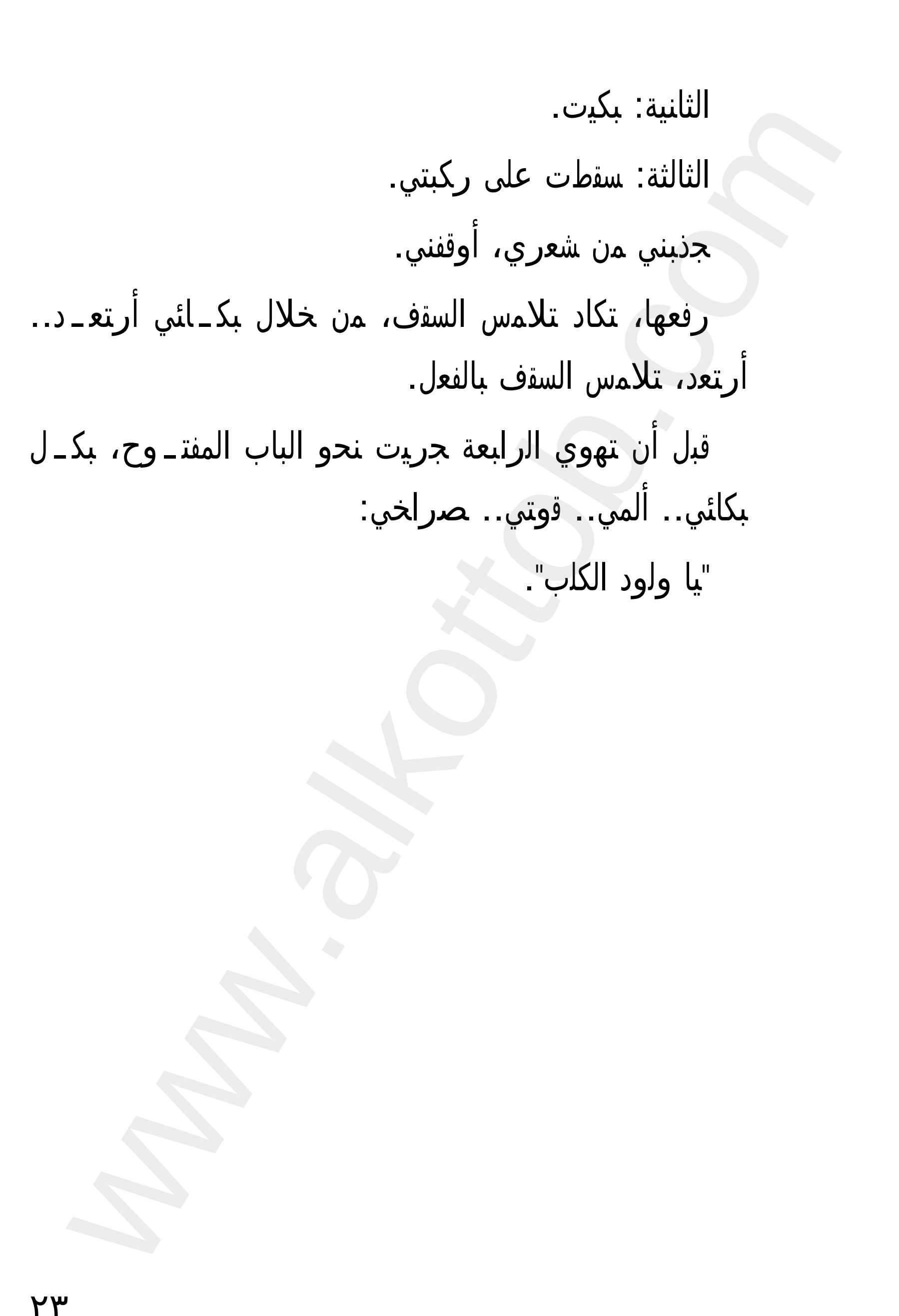
خلال ثلث دائرة مركزها مرفقه لم يقطع دورانها المندفع سوى صوت شقها للهواء.

في اللحظة الأخيرة رغما عني وجـدت يـدي تتراجـع لتتركها تكمل نصف الدائرة.

"طب وحياة أمك بقوا عشرة، ابقى خلـي واحـدة تفلـت تاني".

رفعها فوق كتفه.

الأولى: آآآآه.



الثانية: بكيت.

الثالثة: سقطت على ركبتي.

جذبني من شعري، أوقفني.

رفعها، تكاد تلامس السقف، من خلال بكـائي أرتعـد.. أرتعد، تلامس السقف بالفعل.

قبل أن تهوي الرابعة جريت نحو الباب المفتـوح، بكـل بكائي.. ألمي.. قوتي.. صراخي:

"يا ولود الكلب".

داخل الخارج

لم تكن الخيارات لديه متوفرةً بكثرة؛ فهو بين إما وإما.

الأولى تقتضي أن يبقى مستسلما لزوجة أبيه "أم زينهم"، بضربها الذي لا ينتهي.. لدغها.. عضها.. سبها إياه وأمه المتوفاة، وتحمل كل شاق مما تكلفه به، كذلك ضرب "زينهم"، وفي النهاية ضرب أبيه آخر كل يوم؛ بسبب شكاوى "أم زينهم" و"زينهم".

الثانية هي التي بقيت أمامه، ترك البيت بعد نوم الجميع، نزل إلى الدنيا الكبيرة يحمل على كتفيه أعوامه الاثنى عشر، كيسا به جلبابه الآخر الوحيد، ومبلغ ضئيل من النقود – أخذه خلسة من "سيالة" أبيه – كذلك أحلاما لا تحتل "أم زينهم" أي جزء فيها.

يخطُر مبتعدا عن بيتهم القميء.

يفكر في ردود أفعال لدى اكتشافهم رحيله.. لن يسوء الأمر أحدا.

فقط سيتهم بالسرقة، هو يعلم أنه مظلوم، كل الأمـر أنـه أخذ بعضا مما كانوا سينفقونه عليه لمدة أسبوع أو اثنين دفعة واحدة.

لو حسبوها جيدا؛ لوجدوا أنه قد وفر لهم الكثير، يداخلـه شعور بالراحة لذلك.

يبتعد عن البيت، عن المنطقة كلها، الشوارع خالية تماما، أول مرة يراها دون الباعة.. الزحام.. الصخب.. الأضـواء، السيارات كل حين تمرق واحدة.

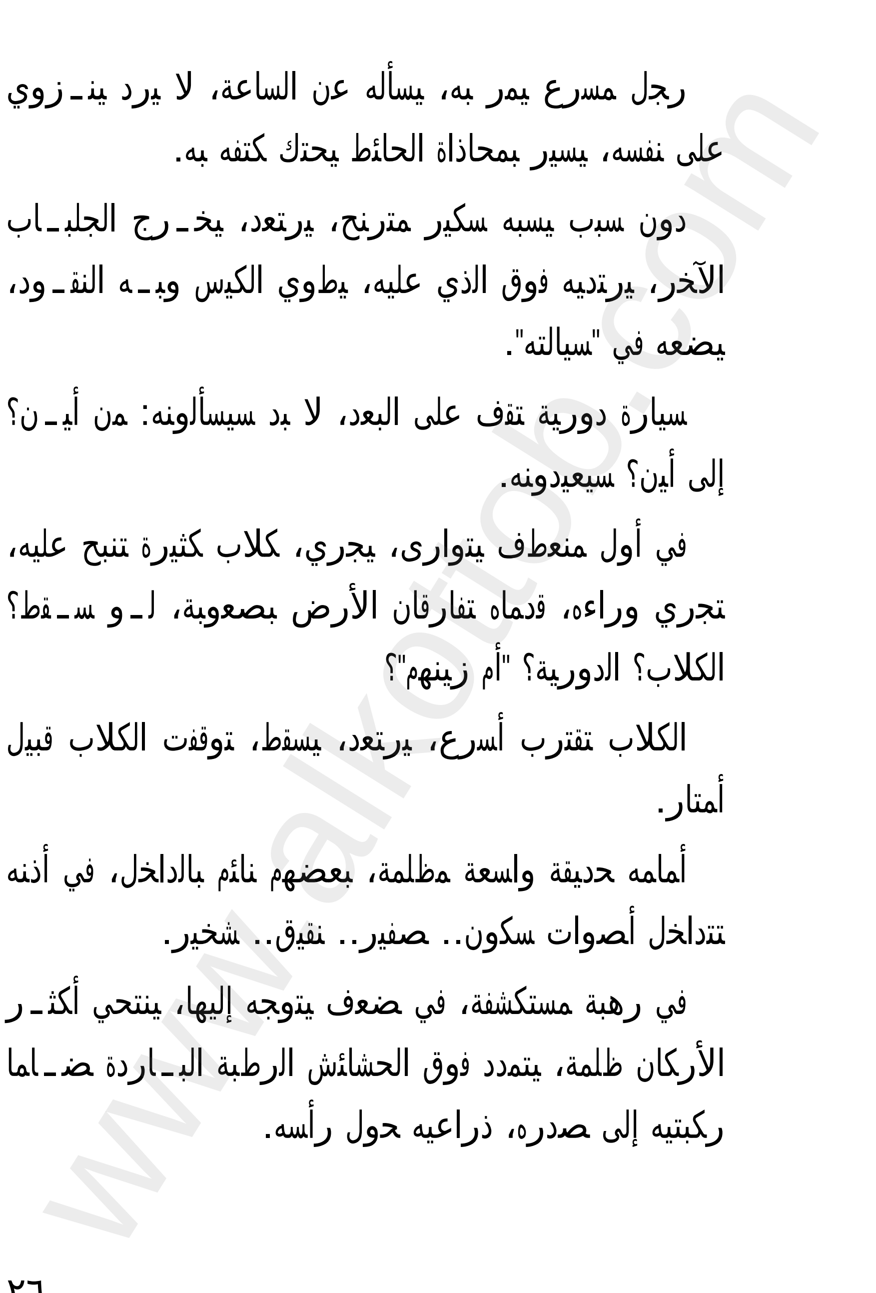
يتسع الشارع، يكاد لا يرى شاطئيه، صوت خطواته عالٍ يمزق أردية السكون، بصعوبة يحول السـير دون إصـدار صوت.

الصوت يعلو في أذنه: أين ستقضي ليلتك؟ لياليك؟ من أين ستأكل؟ ماذا ستأكل؟

بعد السير القليل تعبت قدماه، شعر بالجوع.

وضع يده يتحسس نقوده، كل الدنيا ميتة، تلفـت حولـه، صفعته أبواب الحوانيت الموصدة.

أنزل يده في حسرة، استند إلى الحائط يود لو يسـتريح، لو ينام.



رجل مسرع يمر به، يسأله عن الساعة، لا يرد ينـزوي على نفسه، يسير بمحاذاة الحائط يحتك كتفه به.

دون سبب يسبه سكير مترنح، يرتعد، يخـرج الجلبـاب الآخر، يرتديه فوق الذي عليه، يطوي الكيس وبـه النقـود، يضعه في "سيالته".

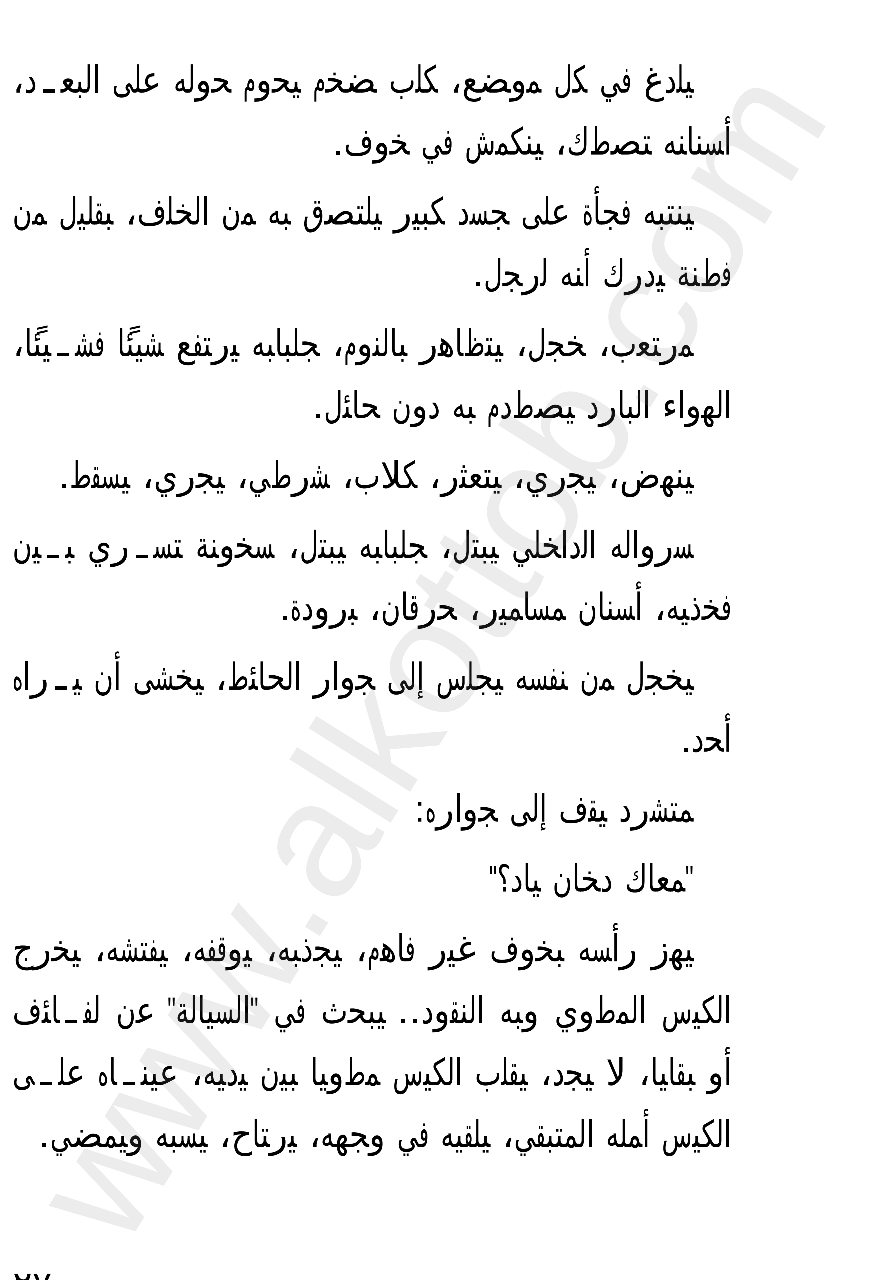
سيارة دورية تقف على البعد، لا بد سيسألونه: من أيـن؟ إلى أين؟ سيعيدونه.

في أول منعطف يتوارى، يجري، كلاب كثيرة تنبح عليه، تجري وراءه، قدماه تفارقان الأرض بصعوبة، لـو سـقط؟ الكلاب؟ الدورية؟ "أم زينهم"؟

الكلاب تقترب أسرع، يرتعد، يسقط، توقفت الكلاب قبيل أمتار.

أمامه حديقة واسعة مظلمة، بعضهم نائم بالداخل، في أذنه تتداخل أصوات سكون.. صفير.. نقيق.. شخير.

في رهبة مستكشفة، في ضعف يتوجه إليها، ينتحي أكثـر الأركان ظلمة، يتمدد فوق الحشائش الرطبة البـاردة ضـاما ركبتيه إلى صدره، ذراعيه حول رأسه.



يلدغ في كل موضع، كلاب ضخم يحوم حوله على البعـد، أسنانه تصطك، ينكمش في خوف.

ينتبه فجأة على جسد كبير يلتصق به من الخلف، بقليل من فطنة يدرك أنه ارجل.

مرتعب، خجل، يتظاهر بالنوم، جلبابه يرتفع شيئًا فشـيئًا، الهواء البارد يصطدم به دون حائل.

ينهض، يجري، يتعثر، كلاب، شرطي، يجري، يسقط.

سرواله الداخلي يبتل، جلبابه يبتل، سخونة تسـري بـين فخذيه، أسنان مسامير، حرقان، برودة.

يخجل من نفسه يجلس إلى جوار الحائط، يخشى أن يـراه أحد.

متشرد يقف إلى جواره:

"معاك دخان ياد؟"

يهز رأسه بخوف غير فاهم، يجذبه، يوقفه، يفتشه، يخرج الكيس المطوي وبه النقود.. يبحث في "السيالة" عن لفـائف أو بقايا، لا يجد، يقلب الكيس مطويا بين يديه، عينـاه علـى الكيس أمله المتبقي، يلقيه في وجهه، يرتاح، يسبه ويمضي.

ملابسه مبتلة، مؤلمة، البرودة شـديدة، يخلـع السـروال الداخلي، يشعر ببعض التحرر.

يعلو الصوت: أول ليلـة.. الليـالي كثيـرة.. طويلـة.. مظلمة.. موحشة.

تضربه "أم زينهم".. يأوي إلى فراش، يضربه "زيـنهم".. يأكل.

يستدير، الدموع تعوق الرؤية الواضحة.

"أين أنت يا أمي؟.. لماذا ذهبت؟.. لـو كنـت موجـودة لأطعتك فـي كـل شـيء.. لمـا ضـربتني "أم زيـنهم".. ولا "زينهم".. حتى أبي لم يكن يضربني وأنت موجودة. لماذا أنت التي تموتين؟.. لماذا لم تمت "أم زينهم" و"زينهم"؟.. أريد أن أموت لأقابلك في السماء".

يمسح دموعه ليجد البيت في مواجهته، الليل قائم، الوضع على حاله، يصعد، يقف أمام باب الشقة يتسمع، يزيح النافذة الزجاجية، يمد يده من بـين الشـرائح الحديديـة، يلامـس المزلاج، يفتحه، برهبة يدخل، في حرص شديد يغلق الباب، يغمره دفء الأنفاس، يتسلل إلى حجرة "أم زينهم" وأبيه، يعيد النقود.

يدخل حجرته، يعبر فوق الأكوام المتجردة مـن الحيـاة لحين، يتمدد في مكانه الذي لم يفقد دِفئه بعد.





في الظروف العادية لا تتسع الملابس

هربت إلى كراستي الجديدة، فوق الغلاف مكتوب بخـط أبي:

أحمد محمد سعيد

مدرسة عمر بن الخطاب الابتدائية

١/٣

فتحت الكراسة، في الصفحة الأولى الملاصـقة للغـلاف بخط أبي كذلك:

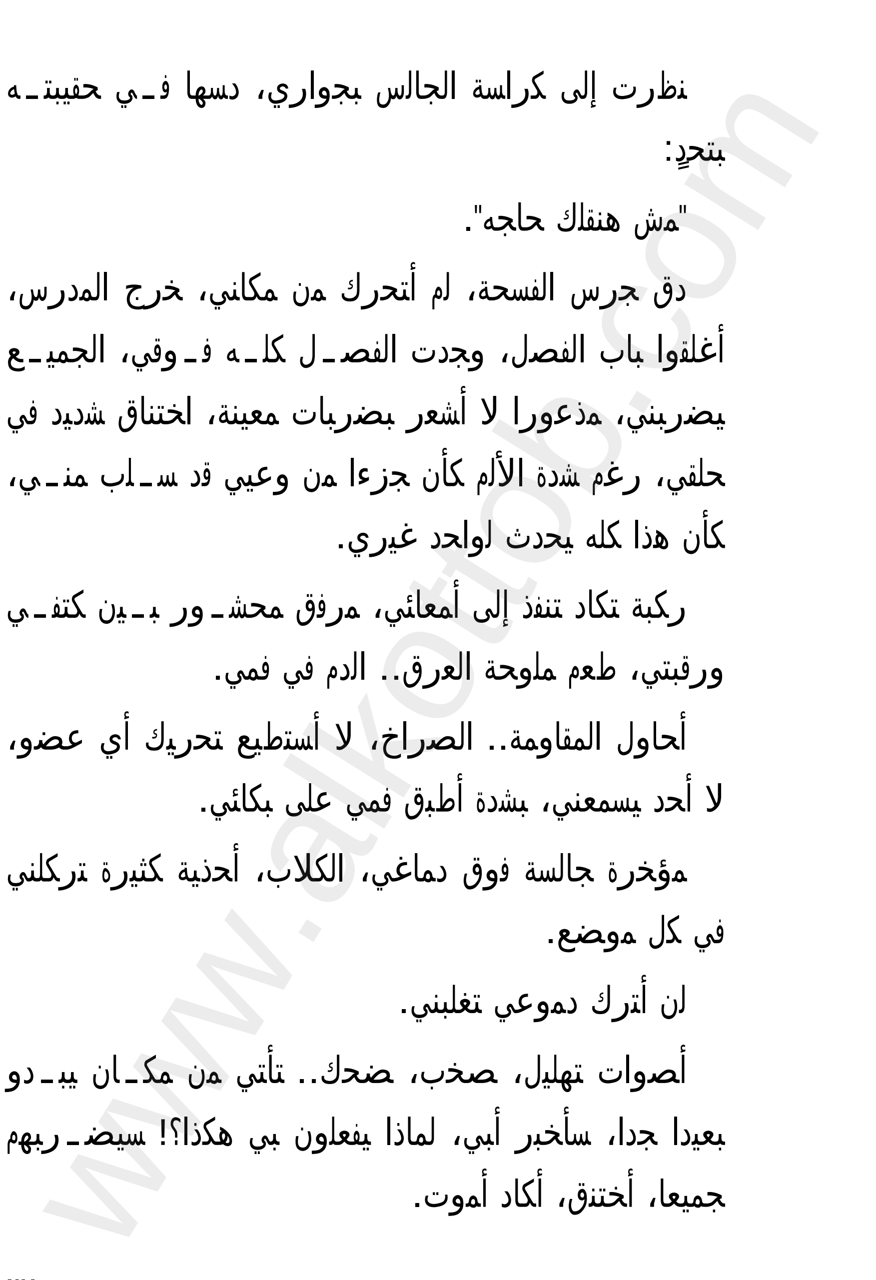
بسم ا   الرحمن الرحيم.. وبه نستعين.. ثم العنوان الجديد الذي انتقلنا إليه.

المدرسة جديدة، غريبة، التلاميذ، المدرسـون، الفـراش، الناظر، الطابور، المقاعد.

حتى الزي الذي أرتديه، يشعرني أنني شخص آخر.

قال لي المدرس:

"انقل الدروس اللي فاتتك من زمايلك".



نظرت إلى كراسة الجالس بجواري، دسها فـي حقيبتـه بتحدٍ:

"مش هنقلك حاجه".

دق جرس الفسحة، لم أتحرك من مكاني، خرج المدرس، أغلقوا باب الفصل، وجدت الفصـل كلـه فـوقي، الجميـع يضربني، مذعورا لا أشعر بضربات معينة، اختناق شديد في حلقي، رغم شدة الألم كأن جزءا من وعيي قد سـلب منـي، كأن هذا كله يحدث لواحد غيري.

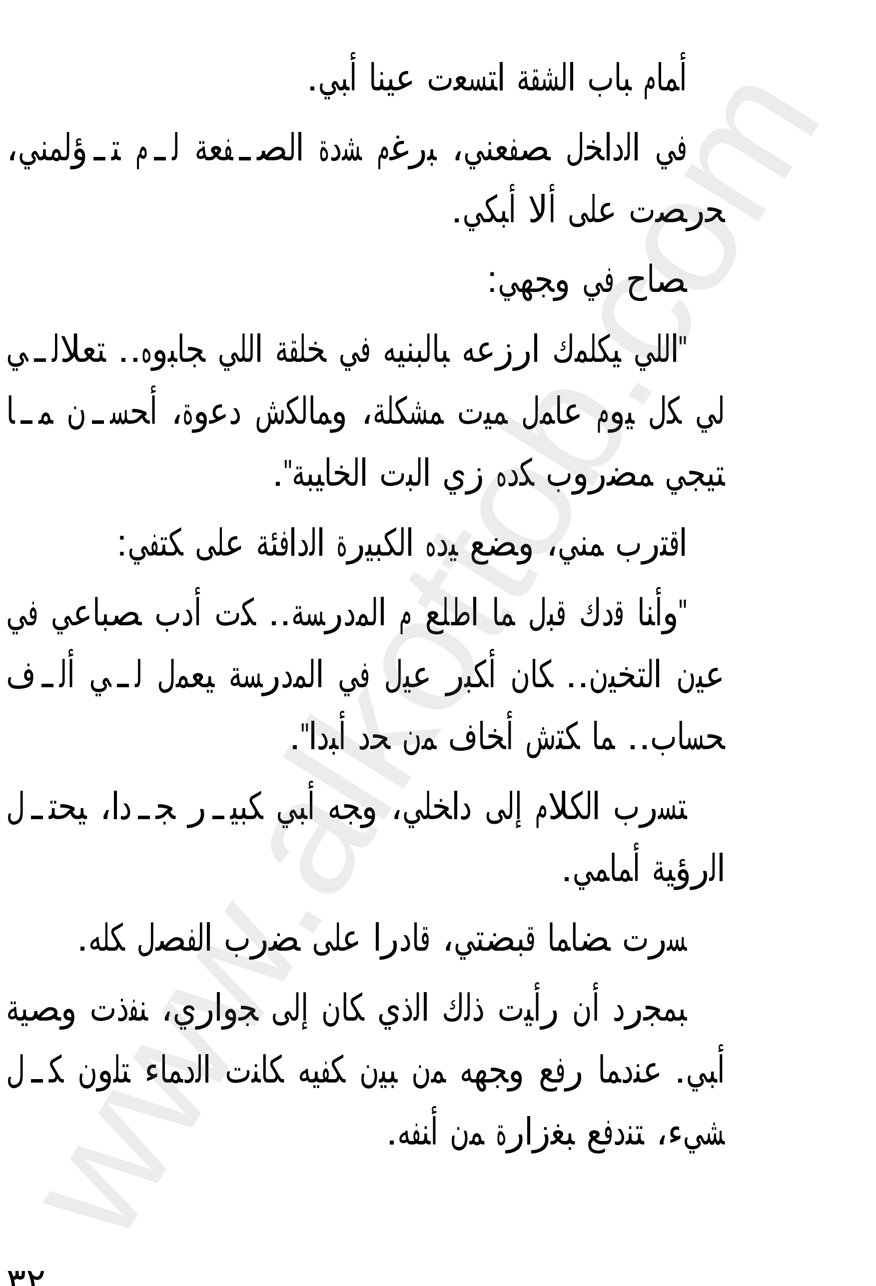
ركبة تكاد تنفذ إلى أمعائي، مرفق محشـور بـين كتفـي ورقبتي، طعم ملوحة العرق.. الدم في فمي.

أحاول المقاومة.. الصراخ، لا أستطيع تحريك أي عضو، لا أحد يسمعني، بشدة أطبق فمي على بكائي.

مؤخرة جالسة فوق دماغي، الكلاب، أحذية كثيرة تركلني في كل موضع.

لن أترك دموعي تغلبني.

أصوات تهليل، صخب، ضحك.. تأتي من مكـان يبـدو بعيدا جدا، سأخبر أبي، لماذا يفعلون بي هكذا؟! سيضـربهم جميعا، أختنق، أكاد أموت.



أمام باب الشقة اتسعت عينا أبي.

في الداخل صفعني، برغم شدة الصـفعة لـم تـؤلمني، حرصت على ألا أبكي.

صاح في وجهي:

"اللي يكلمك ارزعه بالبنيه في خلقة اللي جابوه.. تعلالـي لي كل يوم عامل ميت مشكلة، ومالكش دعوة، أحسـن مـا تيجي مضروب كده زي البت الخايبة".

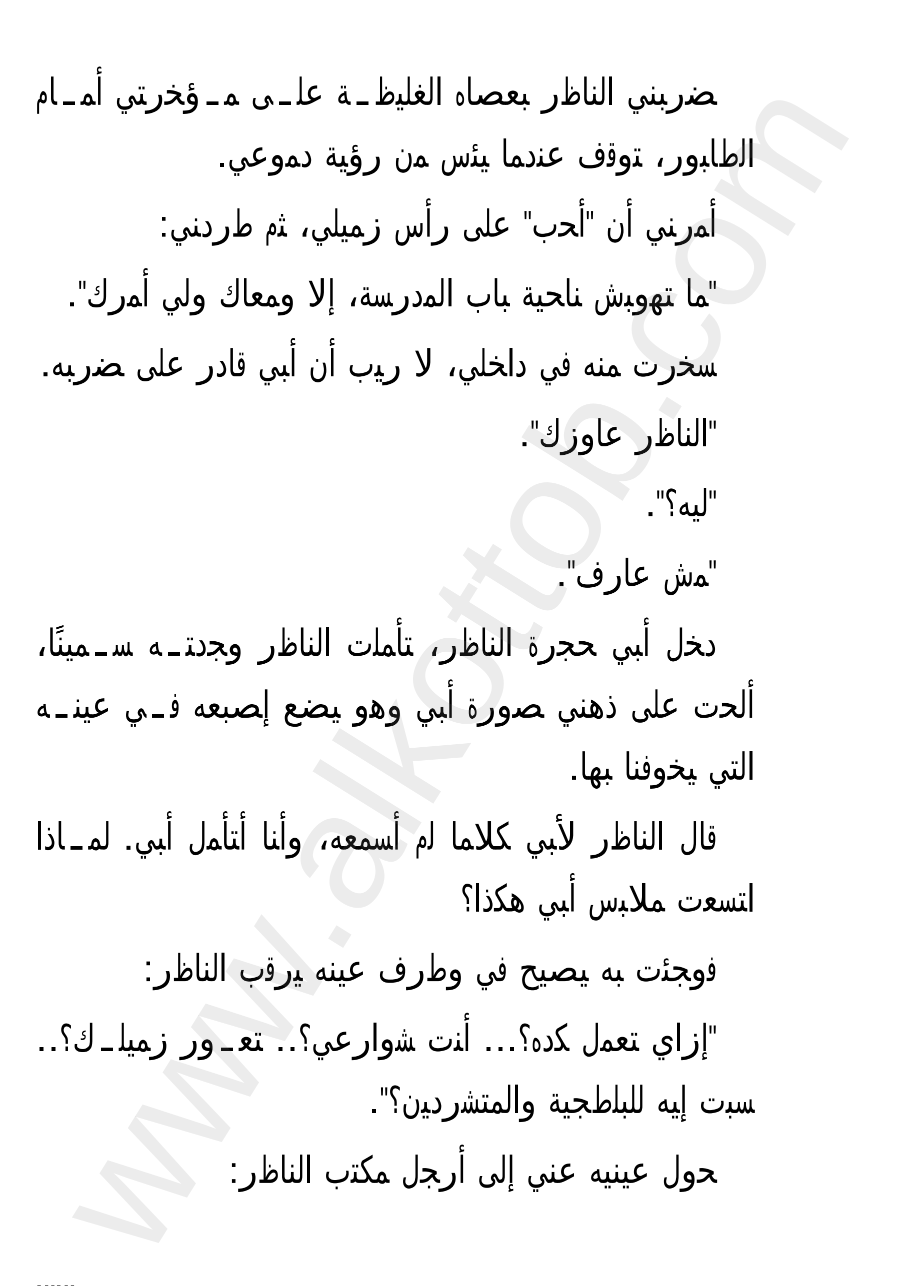
اقترب مني، ووضع يده الكبيرة الدافئة على كتفي:

"وأنا قدك قبل ما اطلع م المدرسة.. كت أدب صباعي في عين التخين.. كان أكبر عيل في المدرسة يعمل لـي ألـف حساب.. ما كتش أخاف من حد أبدا".

تسرب الكلام إلى داخلي، وجه أبي كبيـر جـدا، يحتـل الرؤية أمامي.

سرت ضاما قبضتي، قادرا على ضرب الفصل كله.

بمجرد أن رأيت ذلك الذي كان إلى جواري، نفذت وصية أبي. عندما رفع وجهه من بين كفيه كانت الدماء تلون كـل شيء، تندفع بغزارة من أنفه.



ضربني الناظر بعصاه الغليظـة علـى مـؤخرتي أمـام الطابور، توقف عندما يئس من رؤية دموعي.

أمرني أن "أحب" على رأس زميلي، ثم طردني:

"ما تهوبش ناحية باب المدرسة، إلا ومعاك ولي أمرك".

سخرت منه في داخلي، لا ريب أن أبي قادر على ضربه.

"الناظر عاوزك".

"ليه؟".

"مش عارف".

دخل أبي حجرة الناظر، تأملت الناظر وجدتـه سـمينًا، ألحت على ذهني صورة أبي وهو يضع إصبعه فـي عينـه التي يخوفنا بها.

قال الناظر لأبي كلاما لم أسمعه، وأنا أتأمل أبي. لمـاذا اتسعت ملابس أبي هكذا؟

فوجئت به يصيح في وطرف عينه يرقب الناظر:

"إزاي تعمل كده؟... أنت شوارعي؟.. تعـور زميلـك؟.. سبت إيه للبلطجية والمتشردين؟".

حول عينيه عني إلى أرجل مكتب الناظر:

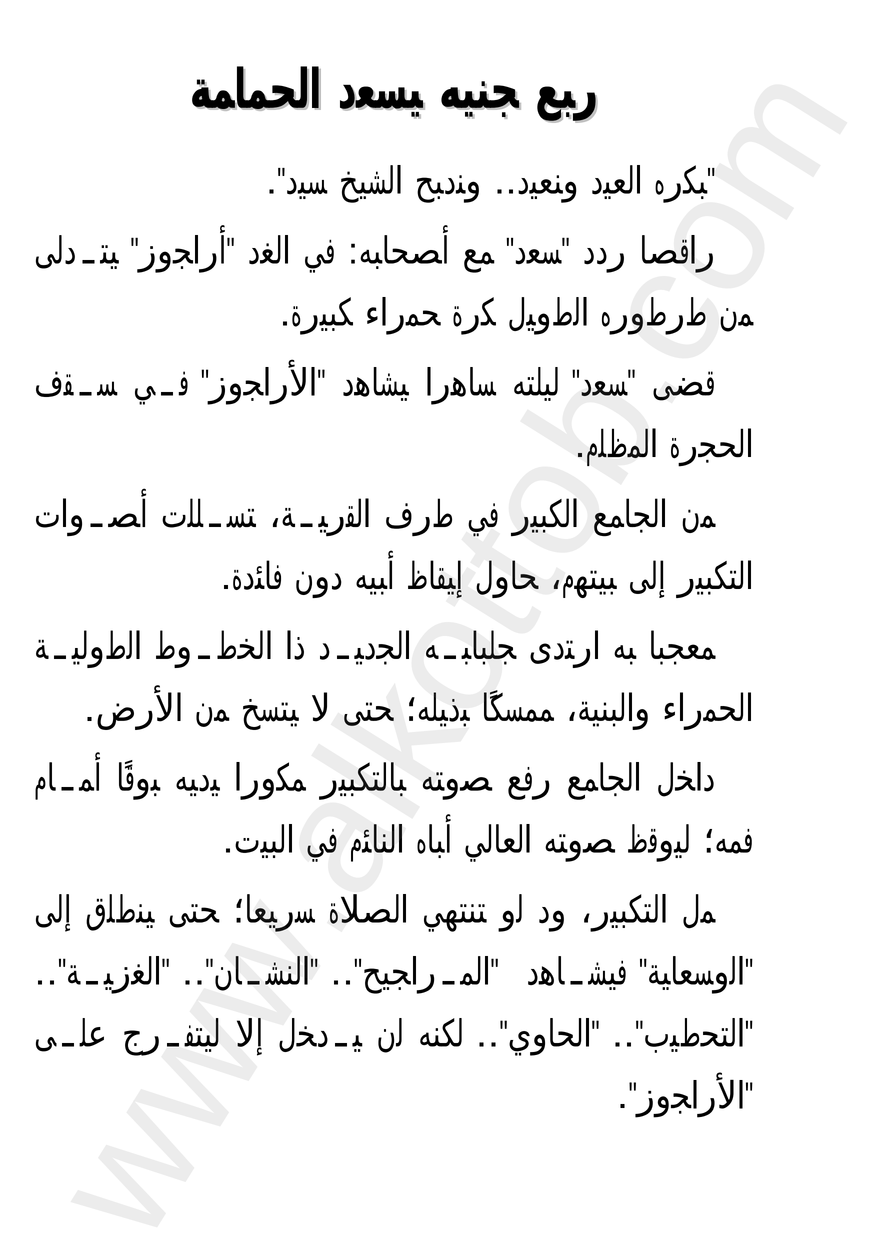


"وكمان بتقول لحضرة البيه الناظر.. أبويا هو اللي قـال لي؟!".

ثم صفعني برفق صفعة آلمتني.

من خلال دموعي، نظرت لوجه أبي.. وجدته مختلفًا.

ربع جنيه يسعد الحمامة



"بكره العيد ونعيد.. وندبح الشيخ سيد".

راقصا ردد "سعد" مع أصحابه: في الغد "أراجوز" يتدلى من طرطوره الطويل كرة حمراء كبيرة.

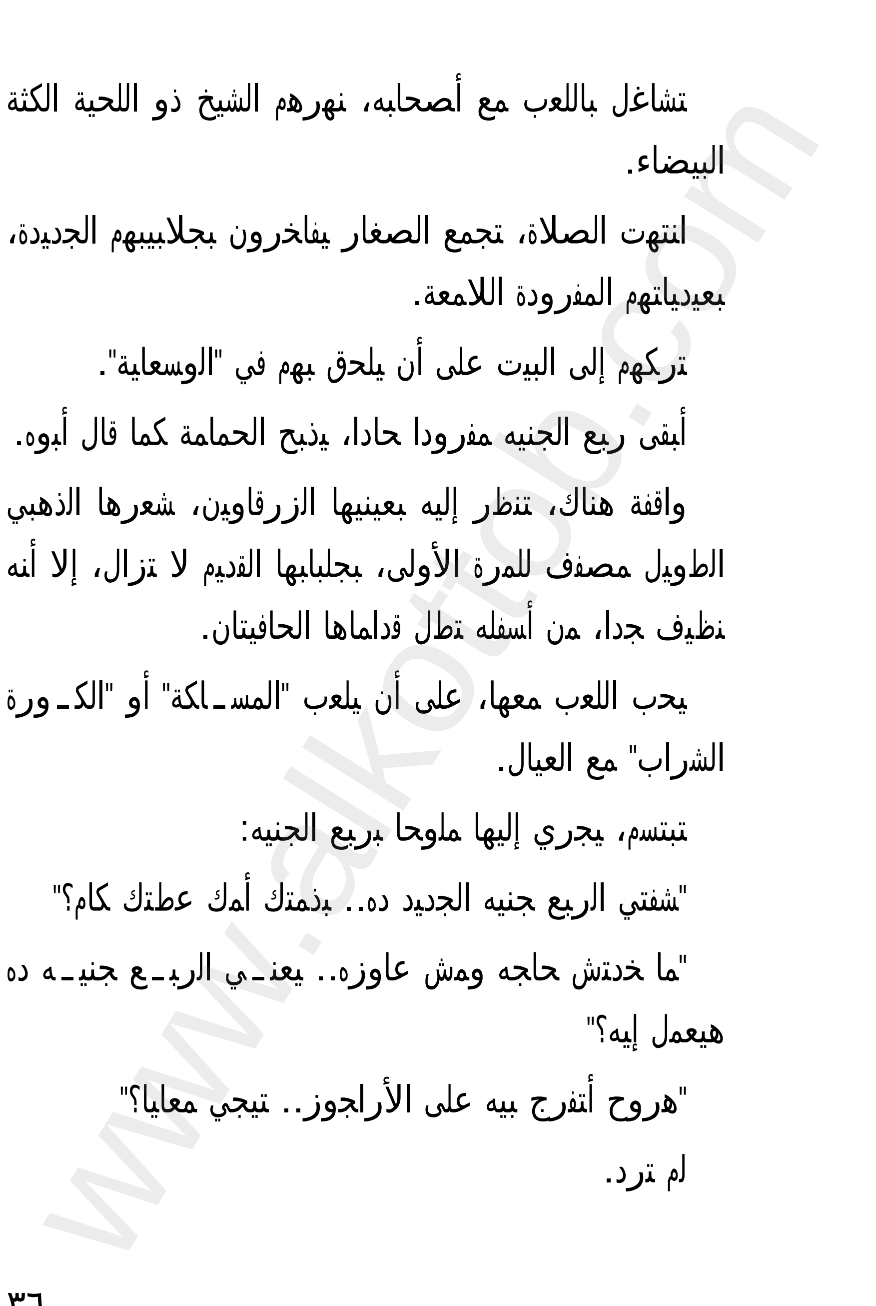
قضى "سعد" ليلته ساهرا يشاهد "الأراجوز" في سقف الحجرة المظلم.

من الجامع الكبير في طرف القرية، تسللت أصوات التكبير إلى بيتهم، حاول إيقاظ أبيه دون فائدة.

معجبا به ارتدى جلبابه الجديد ذا الخطوط الطولية الحمراء والبنية، ممسكًا بذيله؛ حتى لا يتسخ من الأرض.

داخل الجامع رفع صوته بالتكبير مكورا يديه بوقًا أمام فمه؛ ليوقظ صوته العالي أباه النائم في البيت.

مل التكبير، ود لو تنتهي الصلاة سريعا؛ حتى ينطلق إلى "الوسعاية" فيشاهد "المراجيح".. "النشان".. "الغزية".. "التحطيب".. "الحاوي".. لكنه لن يدخل إلا ليتفرج على "الأراجوز".



تشاغل باللعب مع أصحابه، نهرهم الشيخ ذو اللحية الكثة البيضاء.

انتهت الصلاة، تجمع الصغار يفاخرون بجلابيبهم الجديدة، بعيدياتهم المفرودة اللامعة.

تركهم إلى البيت على أن يلحق بهم في "الوسعاية".

أبقى ربع الجنيه مفرودا حادا، يذبح الحمامة كما قال أبوه.

واقفة هناك، تنظر إليه بعينيها الزرقاوين، شعرها الذهبي الطويل مصفف للمرة الأولى، بجلبابها القديم لا تزال، إلا أنه نظيف جدا، من أسفله تطل قداماها الحافيتان.

يحب اللعب معها، على أن يلعب "المساكة" أو "الكورة الشراب" مع العيال.

تبتسم، يجري إليها ملوحا بربع الجنيه:

"شفتي الربع جنيه الجديد ده.. بذمتك أمك عطتك كام؟"

"ما خدتش حاجه ومش عاوزه.. يعني الربع جنيه ده هيعمل إيه؟"

"هروح أتفرج بيه على الأراجوز.. تيجي معايا؟"

لم ترد.

"تعالي.. دا الأراجوز حلو قوي، ونخـش بـالربع جنيـه دهوه".

أمسك بيدها:

"يللا تعالي يا شيخة.. تعالي".

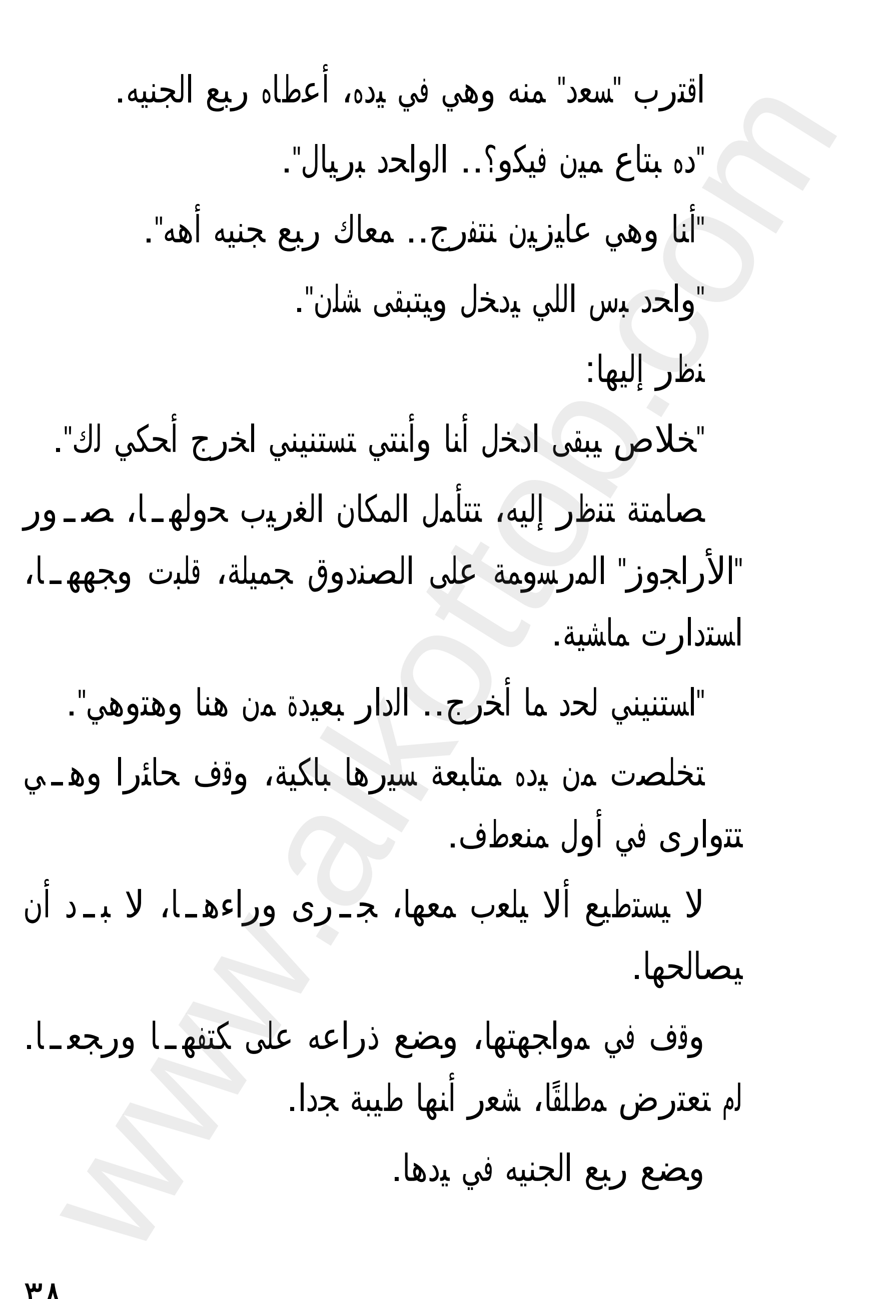
طوال الطريق يحكي لها عن "الأراجـوز"، هـو إنسـان حقيقي صغير جدا، له أنف مستديرة، وكرة حمـراء كبيـرة تتدلى من طرطوره الطويل، صوته عجيب يضـحك الـدنيا كلها.

"الأراجوز" هو أجمل شيء في الدنيا، طوال العام يظـل منتظرا العيد حتى يشاهده، سيدخلان معا يتفرجان عليه وهو يعاكس "ست الحسن والجمال" ويضرب رأسها برأسه.

سعيدة، تضحك، تضحك، سـعيد لأنـه يضـحكها.. لأن "الأراجوز" "بتاعه" أعجبها، كان فخورا به جدا.

أمام الصندوق المعدني الكبير الذي بداخلـه "الأراجـوز" وقفا، دار بها حوله يريها صور "الأراجوز" المرسومة عليـه وهي مبهورة.

"قرب هنا الأراجـوز.. لا جـوز ولا لـوز.. خـش ع الأراجوز".



اقترب "سعد" منه وهي في يده، أعطاه ربع الجنيه.

"ده بتاع مين فيكو؟.. الواحد بريال".

"أنا وهي عايزين نتفرج.. معاك ربع جنيه أهه".

"واحد بس اللي يدخل ويتبقى شلن".

نظر إليها:

"خلاص يبقى ادخل أنا وأنتي تستنيني اخرج أحكي لك".

صامتة تنظر إليه، تتأمل المكان الغريب حولهـا، صـور "الأراجوز" المرسومة على الصندوق جميلة، قلبت وجههـا، استدارت ماشية.

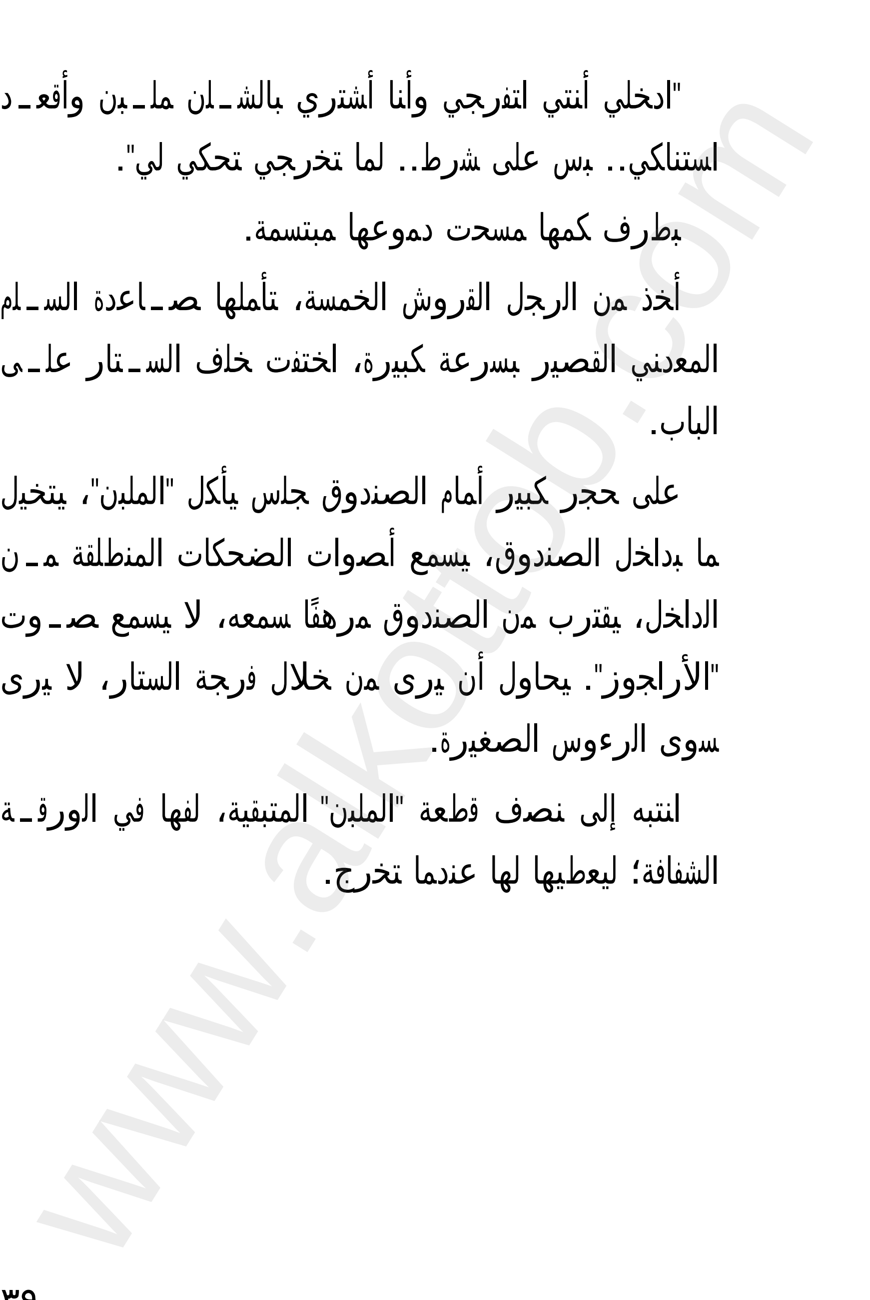
"استنيني لحد ما أخرج.. الدار بعيدة من هنا وهتوهي".

تخلصت من يده متابعة سيرها باكية، وقف حائرا وهـي تتوارى في أول منعطف.

لا يستطيع ألا يلعب معها، جـرى وراءهـا، لا بـد أن يصالحها.

وقف في مواجهتها، وضع ذراعه على كتفهـا ورجعـا. لم تعترض مطلقًا، شعر أنها طيبة جدا.

وضع ربع الجنيه في يدها.



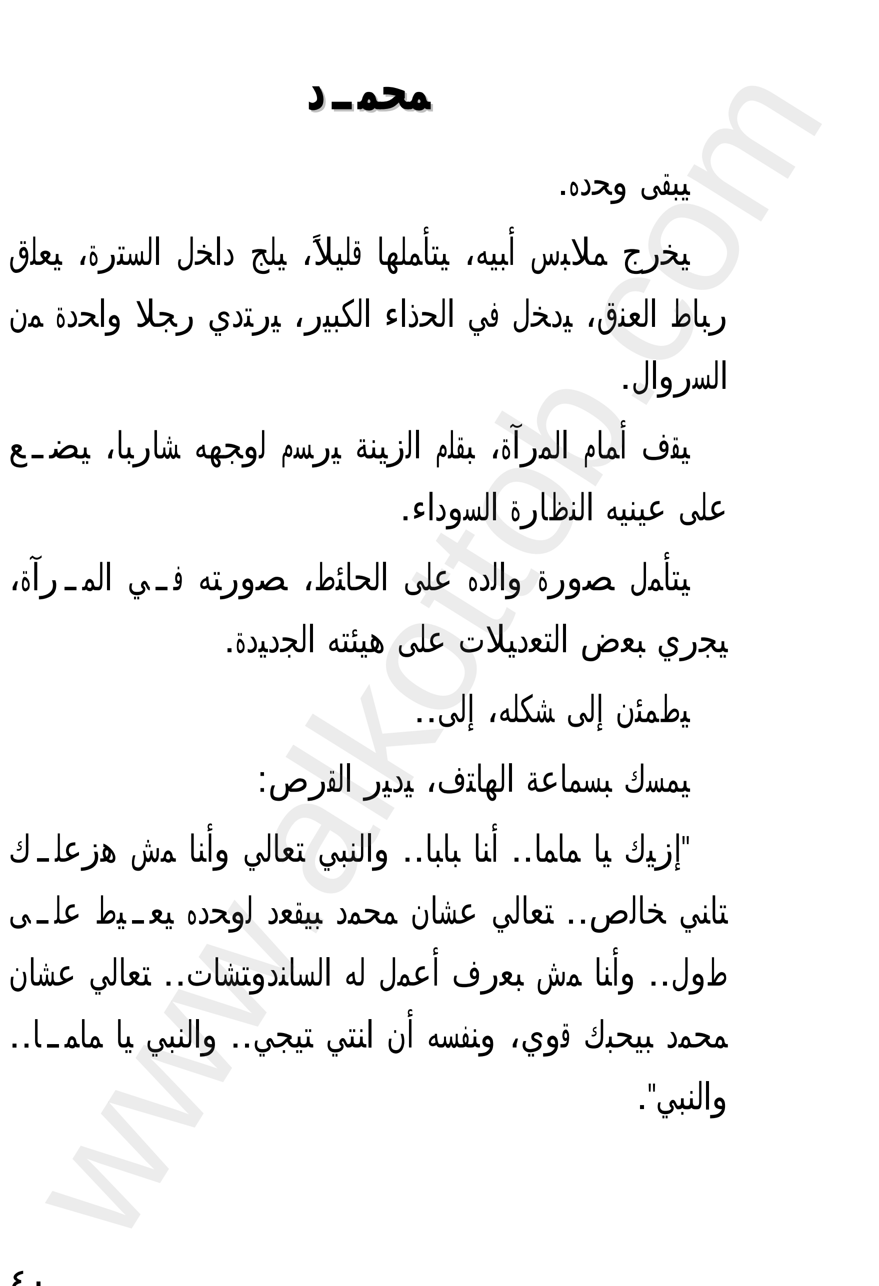
"ادخلي أنتي اتفرجي وأنا أشتري بالشـلن ملـبن وأقعـد استناكي.. بس على شرط.. لما تخرجي تحكي لي".

بطرف كمها مسحت دموعها مبتسمة.

أخذ من الرجل القروش الخمسة، تأملها صـاعدة السـلم المعدني القصير بسرعة كبيرة، اختفت خلف السـتار علـى الباب.

على حجر كبير أمام الصندوق جلس يأكل "الملبن"، يتخيل ما بداخل الصندوق، يسمع أصوات الضحكات المنطلقة مـن الداخل، يقترب من الصندوق مرهفًا سمعه، لا يسمع صـوت "الأراجوز". يحاول أن يرى من خلال فرجة الستار، لا يرى سوى الرءوس الصغيرة.

انتبه إلى نصف قطعة "الملبن" المتبقية، لفها في الورقـة الشفافة؛ ليعطيها لها عندما تخرج.



محمـد

يبقى وحده.

يخرج ملابس أبيه، يتأملها قليلاً، يلج داخل السترة، يعلق رباط العنق، يدخل في الحذاء الكبير، يرتدي رجلا واحدة من السروال.

يقف أمام المرآة، بقلم الزينة يرسم لوجهه شاربا، يضـع على عينيه النظارة السوداء.

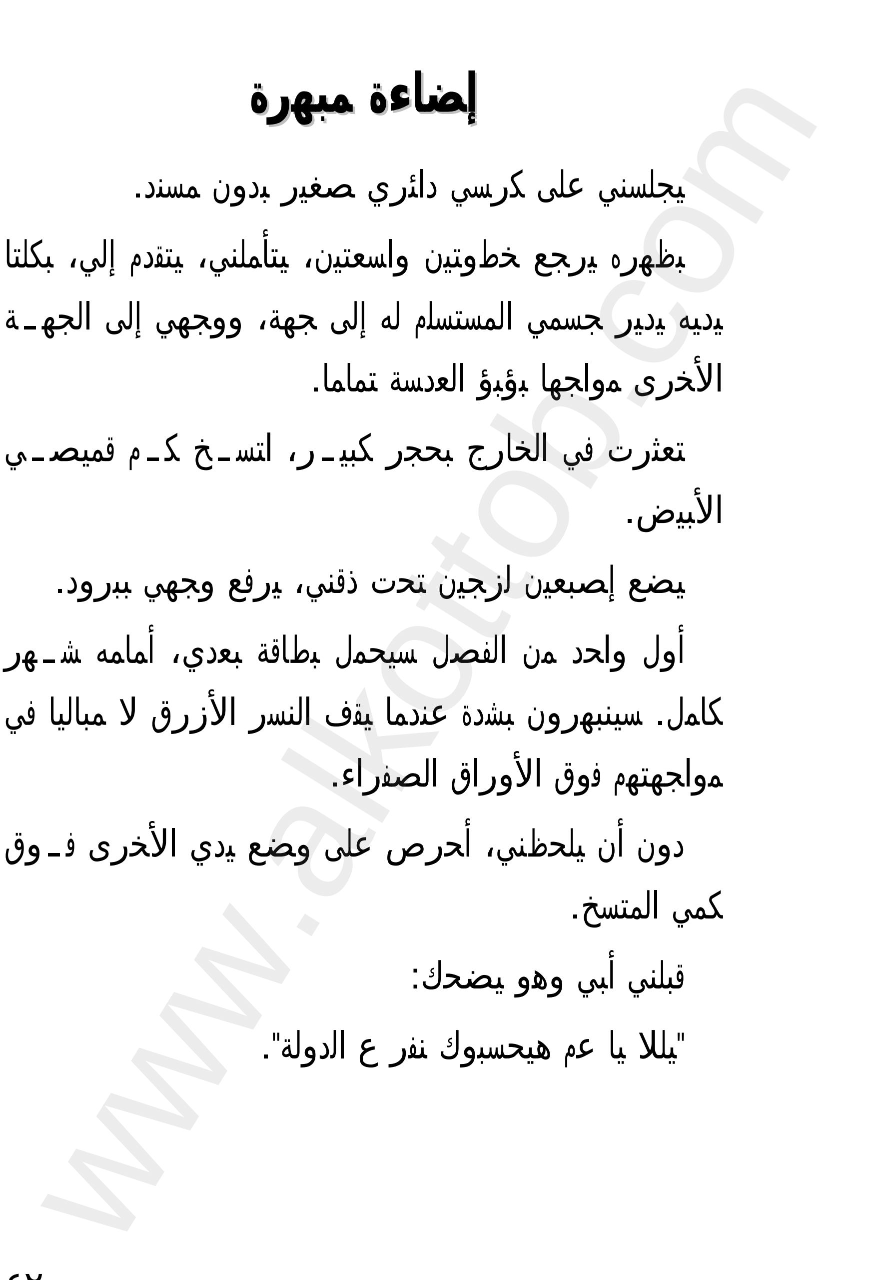
يتأمل صورة والده على الحائط، صورته فـي المـرآة، يجري بعض التعديلات على هيئته الجديدة.

يطمئن إلى شكله، إلى..

يمسك بسماعة الهاتف، يدير القرص:

"إزيك يا ماما.. أنا بابا.. والنبي تعالي وأنا مش هزعلـك تاني خالص.. تعالي عشان محمد بيقعد لوحده يعـيط علـى طول.. وأنا مش بعرف أعمل له الساندوتشات.. تعالي عشان محمد بيحبك قوي، ونفسه أن انتي تيجي.. والنبي يا مامـا.. والنبي".

شارب أصفر خفيف



إضاءة مبهرة

يجلسني على كرسي دائري صغير بدون مسند.

بظهره يرجع خطوتين واسعتين، يتأملني، يتقدم إلي، بكلتا يديه يدير جسمي المستسلم له إلى جهة، ووجهي إلى الجهـة الأخرى مواجها بؤبؤ العدسة تماما.

تعثرت في الخارج بحجر كبيـر، اتسـخ كـم قميصـي الأبيض.

يضع إصبعين لزجين تحت ذقني، يرفع وجهي ببرود.

أول واحد من الفصل سيحمل بطاقة بعدي، أمامه شـهر كامل. سينبهرون بشدة عندما يقف النسر الأزرق لا مباليا في مواجهتهم فوق الأوراق الصفراء.

دون أن يلحظني، أحرص على وضع يدي الأخرى فـوق كمي المتسخ.

قبلني أبي وهو يضحك:

"يللا يا عم هيحسبوك نفر ع الدولة".

بنفسه، كوى لي القميص الأبيض، أعطاني ربطة عنقه الزرقاء الجديدة، مصرا على أن ألمع الحذاء الذي لن يظهر– بالطبع – في الصورة.

"أصل البطاقة دي هتفضل معاك لحد ما تتجوز، ولما تكون الجزمة بتلمع.. تلاقي وشك يطلع منور في الصورة".

ضحكت أمي وأختي، وهو يأتي لينزل يدي من فوق الأخرى، مبتسما ابتسامة بلاستيكية.

قالت أختي وهي تربط لي رقبتي:

"خدلك لحسه م الكريم بتاعي.. وسرح شعرك لفوق".

صاحت أمي:

"لأ.. لفوق إيه.. بلاش خيبة، دي صور البطاقة.. افرقه من ع الجنب أحسن".

يعود إلي مرة أخرى، أخفى أبي فرحته خلف حافة الجريدة التي يمسك بها، يعيد جسمي إلى وضعه الأول المعوج بزاويته المرهقة، رقبتي تؤلمني.

"يا أخي اعدل نفسك بقى.. ما تقرفنيش".

"فرح" لم تهتم كثيرا بكل هذا – ربما لأنها لم تر البطاقـة بعينيها – لكنها ألحت علي أن أعطيها صـورة بمجـرد أن أتسلم الصور، وأن أكتب على ظهرها إهداء؛ حتى تفرجهـا لصاحباتها.

ينحني خاف الكاميرا، يده تعبث في مفاتيح الإضاءة، عينه الظاهرة مغمضة.

البنت الجالسة على المكتب في الخـارج، تحولـت إلـى ابتسامة طازجة، عندما قلت لها:

"صور بطاقة لو سمحتي".

بعينه التي لا تزال مغمضة يزعق:

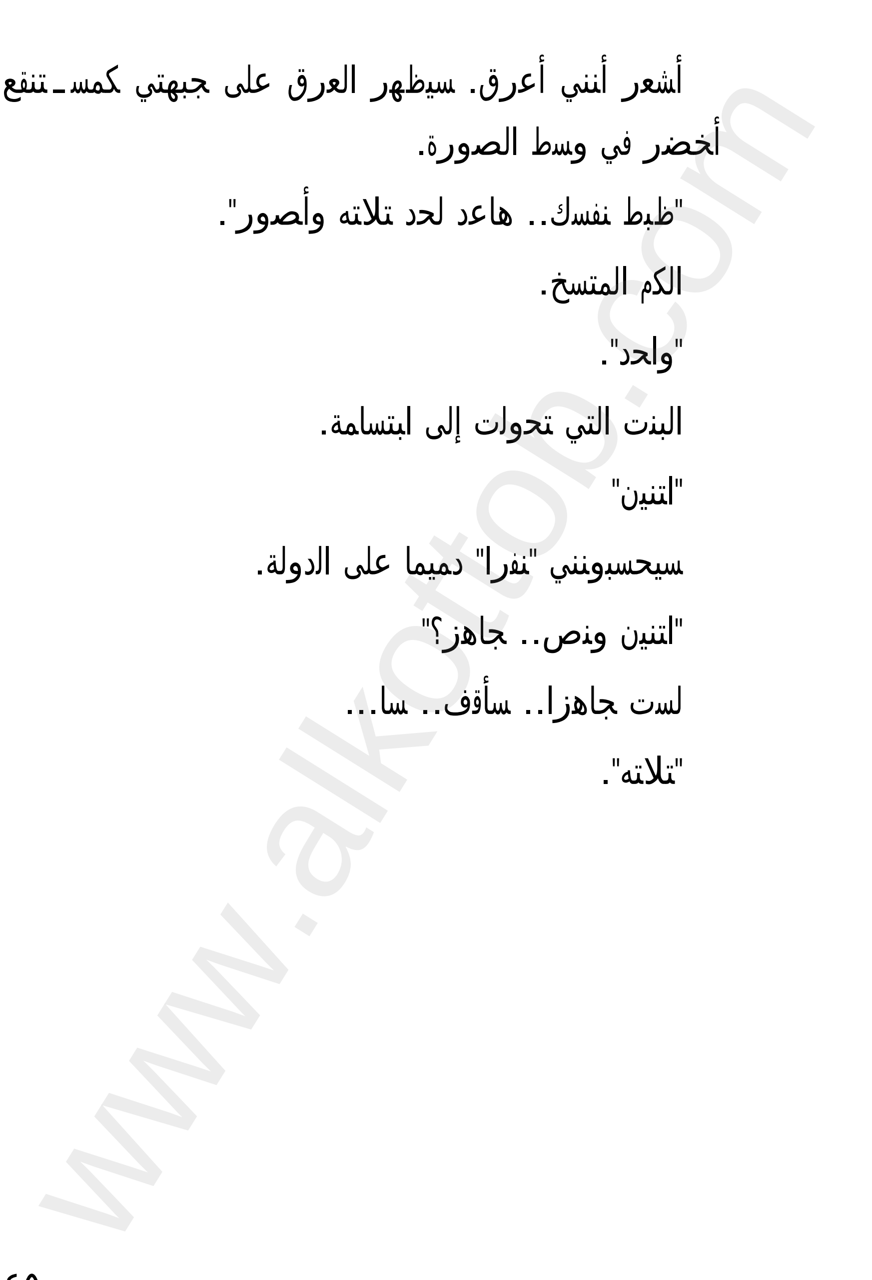
"يللا.. ابتسامة خفيفة".

أحاول أن أركب لوجهي أي ابتسامة.. أفشل.

"البطاقة دي هتفضل معاك لحد ما تتجوز".

أجرب فتح فمي في أوضاع بلهاء.

كل صاحبات "فرح" سيتفرجن على الصورة التي أصرت أن أكتب لها "حبيبتي" على ظهرها.



أشعر أنني أعرق. سيظهر العرق على جبهتي كمستنقع أخضر في وسط الصورة.

"ظبط نفسك.. هاعد لحد تلاته وأصور".

الكم المتسخ.

"واحد".

البنت التي تحولت إلى ابتسامة.

"اتنين"

سيحسبونني "نفرا" دميما على الدولة.

"اتنين ونص.. جاهز؟"

لست جاهزا.. سأقف.. سا...

"تلاته".

إطـــار

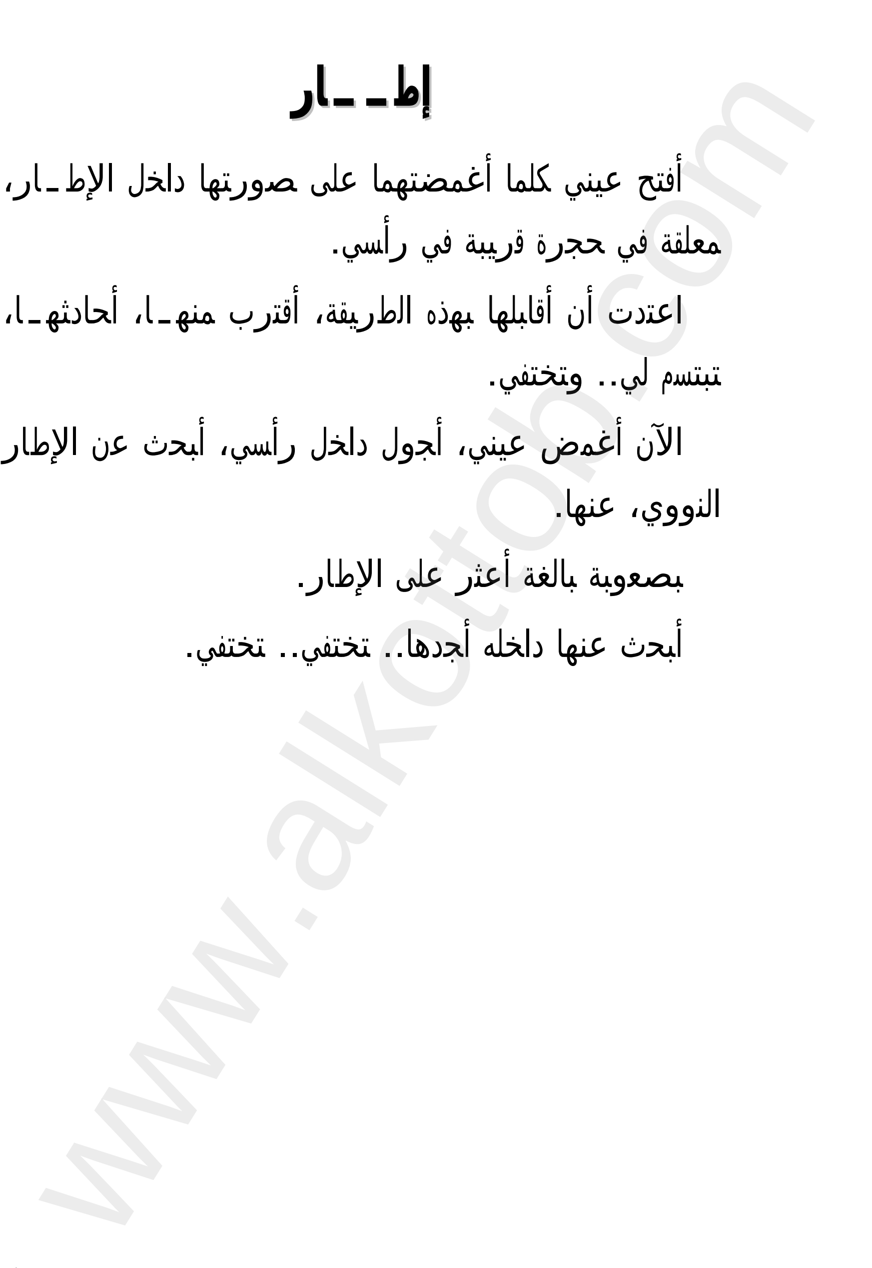
أفتح عيني كلما أغمضتهما على صورتها داخل الإطـــار، معلقة في حجرة قريبة في رأسي.

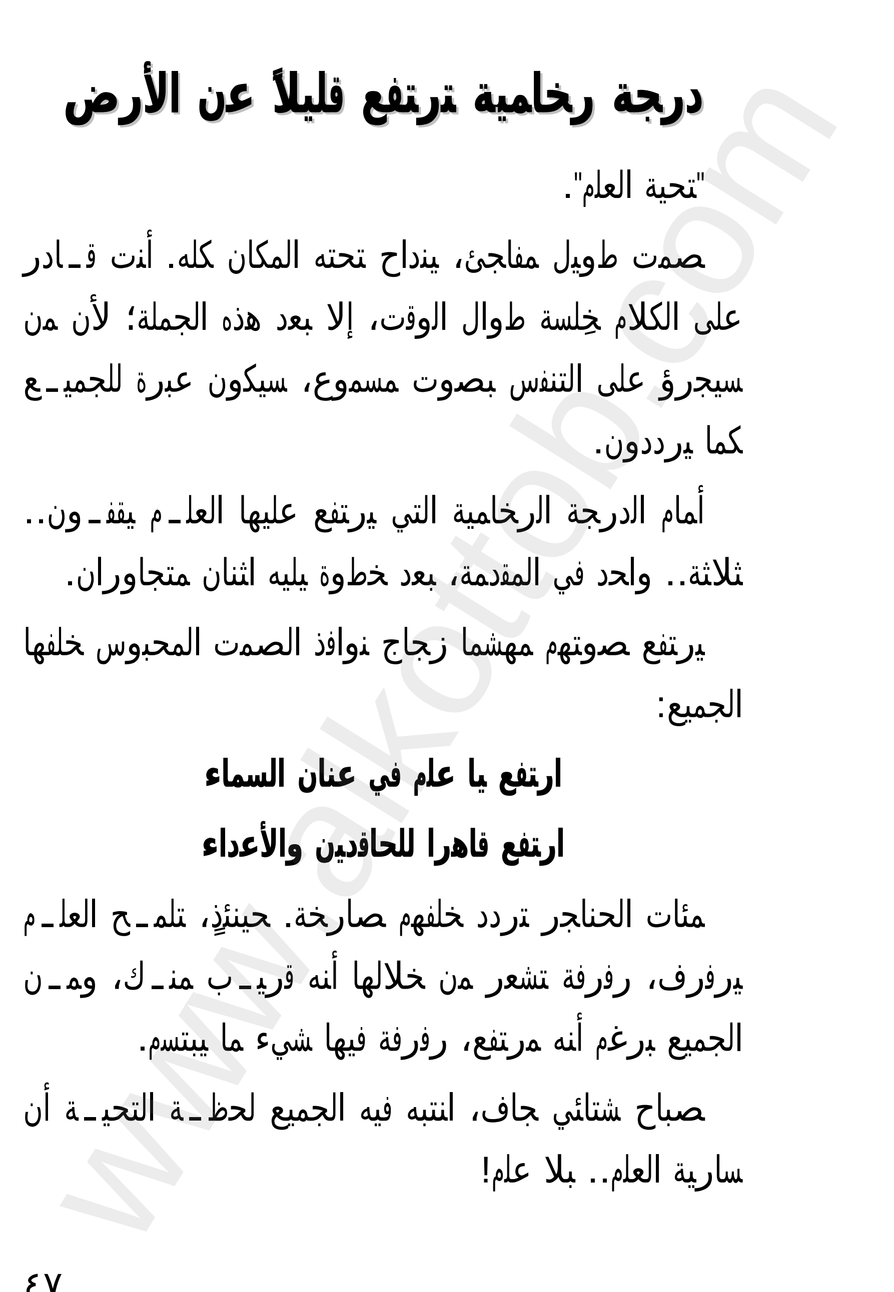
اعتدت أن أقابلها بهذه الطريقة، أقترب منهـــا، أحادثهـــا، تبتسم لي.. وتختفي.

الآن أغمض عيني، أجول داخل رأسي، أبحث عن الإطار النووي، عنها.

بصعوبة بالغة أعثر على الإطار.

أبحث عنها داخله أجدها.. تختفي.. تختفي.





درجة رخامية ترتفع قليلاً عن الأرض

"تحية العلم".

صمت طويل مفاجئ، ينداح تحته المكان كله. أنت قـادر على الكلام خِلسة طوال الوقت، إلا بعد هذه الجملة؛ لأن من سيجرؤ على التنفس بصوت مسموع، سيكون عبرة للجميـع كما يرددون.

أمام الدرجة الرخامية التي يرتفع عليها العلـم يقفـون.. ثلاثة.. واحد في المقدمة، بعد خطوة يليه اثنان متجاوران.

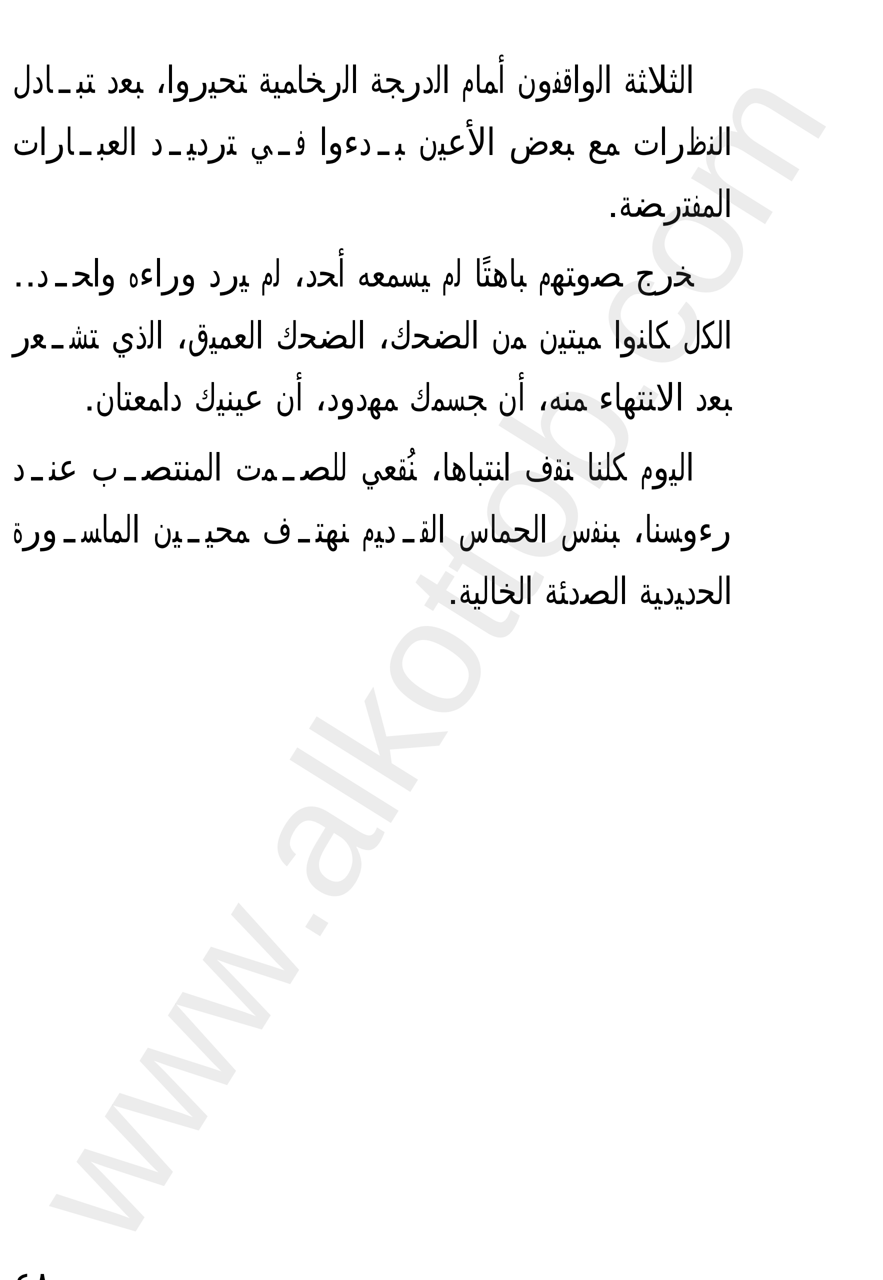
يرتفع صوتهم مهشما زجاج نوافذ الصمت المحبوس خلفها الجميع:

ارتفع يا علم في عنان السماء

ارتفع قاهرا للحاقدين والأعداء

مئات الحناجر تردد خلفهم صارخة. حينئذٍ، تلمـح العلـم يرفرف، رفرفة تشعر من خلالها أنه قريـب منـك، ومـن الجميع برغم أنه مرتفع، رفرفة فيها شيء ما يبتسم.

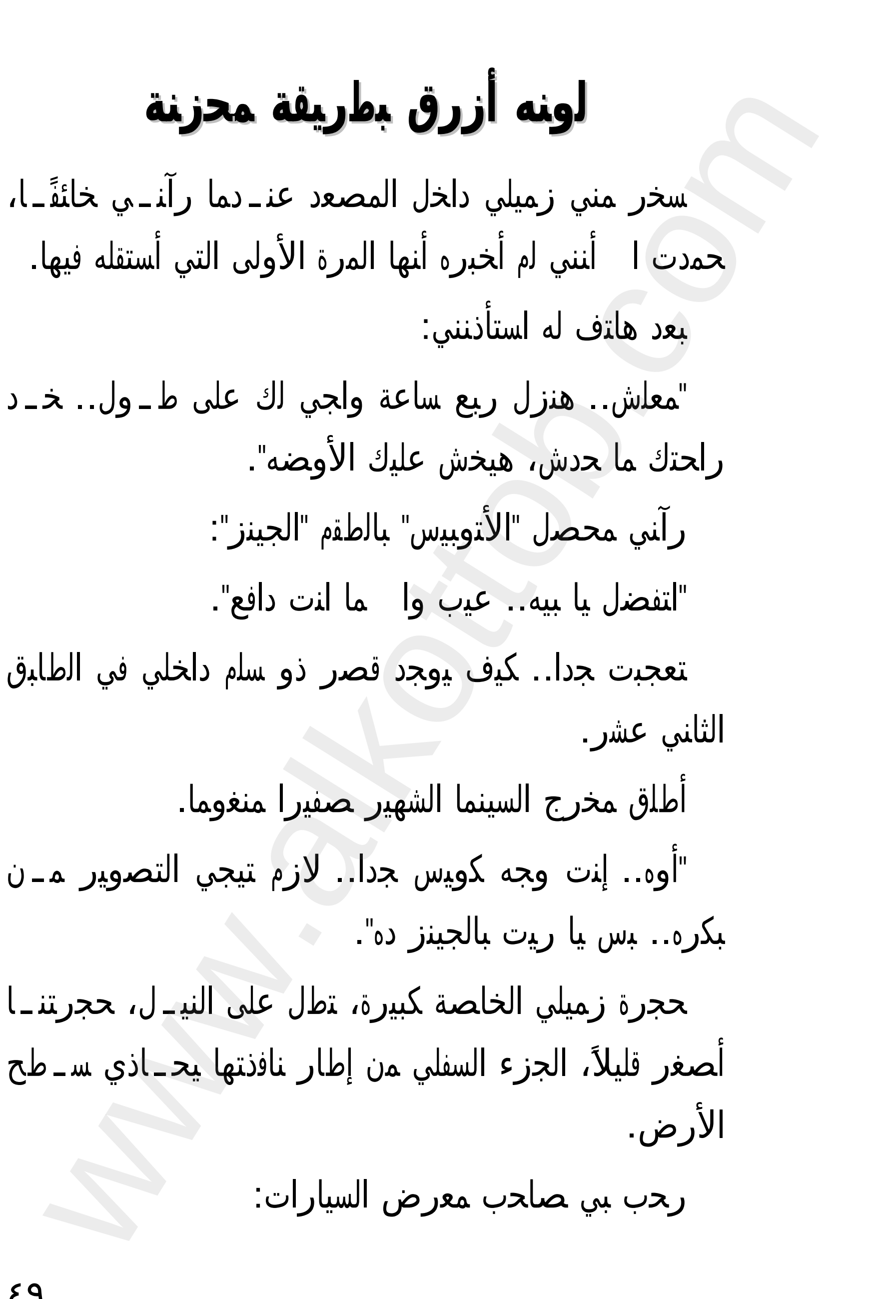
صباح شتائي جاف، انتبه فيه الجميع لحظـة التحيـة أن سارية العلم.. بلا علم!



الثلاثة الواقفون أمام الدرجة الرخامية تحيروا، بعد تبـادل النظرات مع بعض الأعين بـدءوا فـي ترديـد العبـارات المفترضة.

خرج صوتهم باهتًا لم يسمعه أحد، لم يرد وراءه واحـد.. الكل كانوا ميتين من الضحك، الضحك العميق، الذي تشـعر بعد الانتهاء منه، أن جسمك مهدود، أن عينيك دامعتان.

اليوم كلنا نقف انتباها، نُقعي للصـمت المنتصـب عنـد رءوسنا، بنفس الحماس القـديم نهتـف محيـين الماسـورة الحديدية الصدئة الخالية.



لونه أزرق بطريقة محزنة

سخر مني زميلي داخل المصعد عنـدما رآنـي خائفًـا، حمدت ا أنني لم أخبره أنها المرة الأولى التي أستقله فيها.

بعد هاتف له استأذنني:

"معلش.. هنزل ربع ساعة واجي لك على طـول.. خـد راحتك ما حدش، هيخش عليك الأوضه".

رآني محصل "الأتوبيس" بالطقم "الجينز":

"اتفضل يا بيه.. عيب وا ما انت دافع".

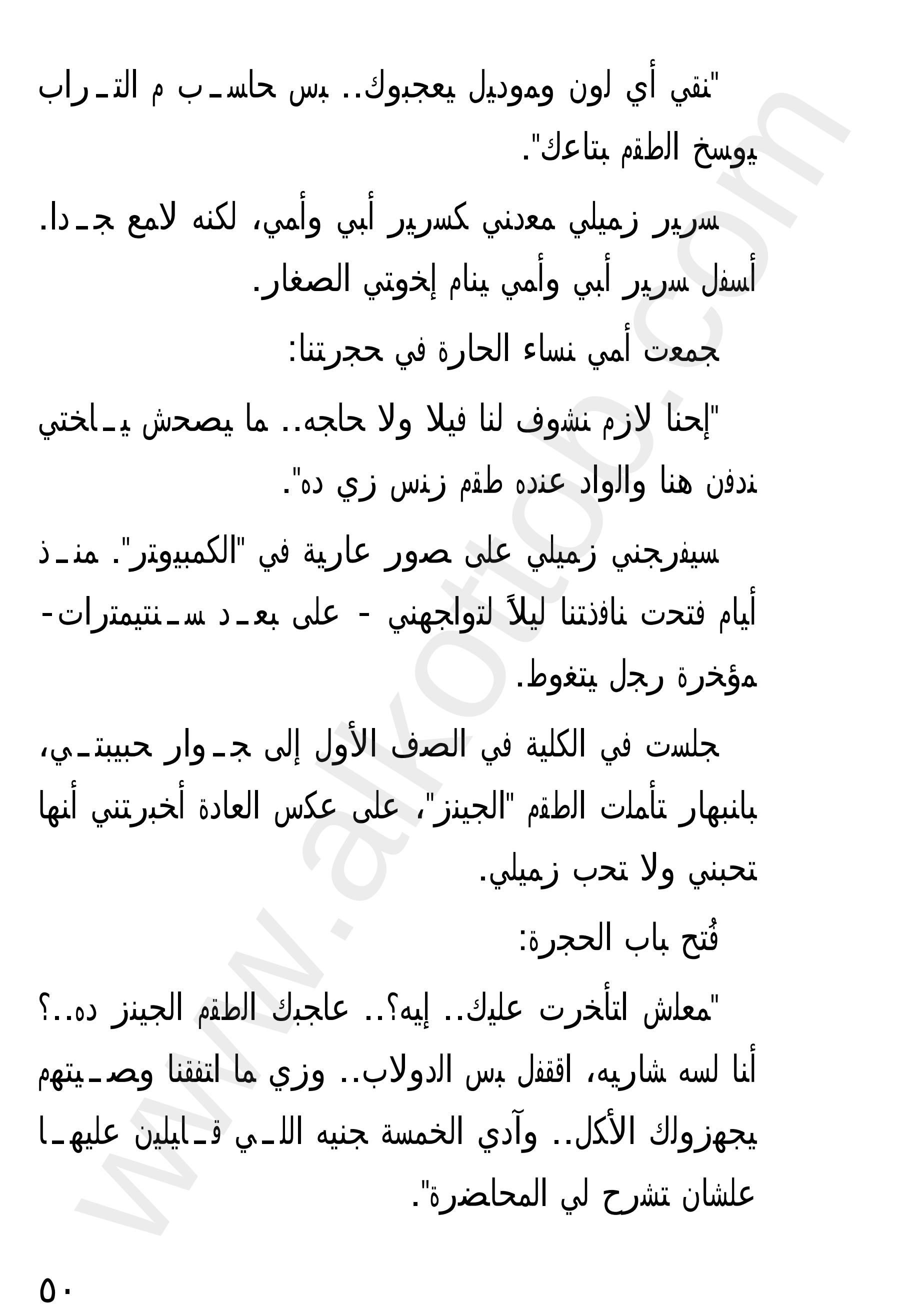
تعجبت جدا.. كيف يوجد قصر ذو سلم داخلي في الطابق الثاني عشر.

أطلق مخرج السينما الشهير صفيرا منغوما.

"أوه.. إنت وجه كويس جدا.. لازم تيجي التصوير مـن بكره.. بس يا ريت بالجينز ده".

حجرة زميلي الخاصة كبيرة، تطل على النيـل، حجرتنـا أصغر قليلاً، الجزء السفلي من إطار نافذتها يحـاذي سـطح الأرض.

رحب بي صاحب معرض السيارات:



"نقي أي لون وموديل يعجبوك.. بس حاسـب م التـراب يوسخ الطقم بتاعك".

سرير زميلي معدني كسرير أبي وأمي، لكنه لامع جـدا. أسفل سرير أبي وأمي ينام إخوتي الصغار.

جمعت أمي نساء الحارة في حجرتنا:

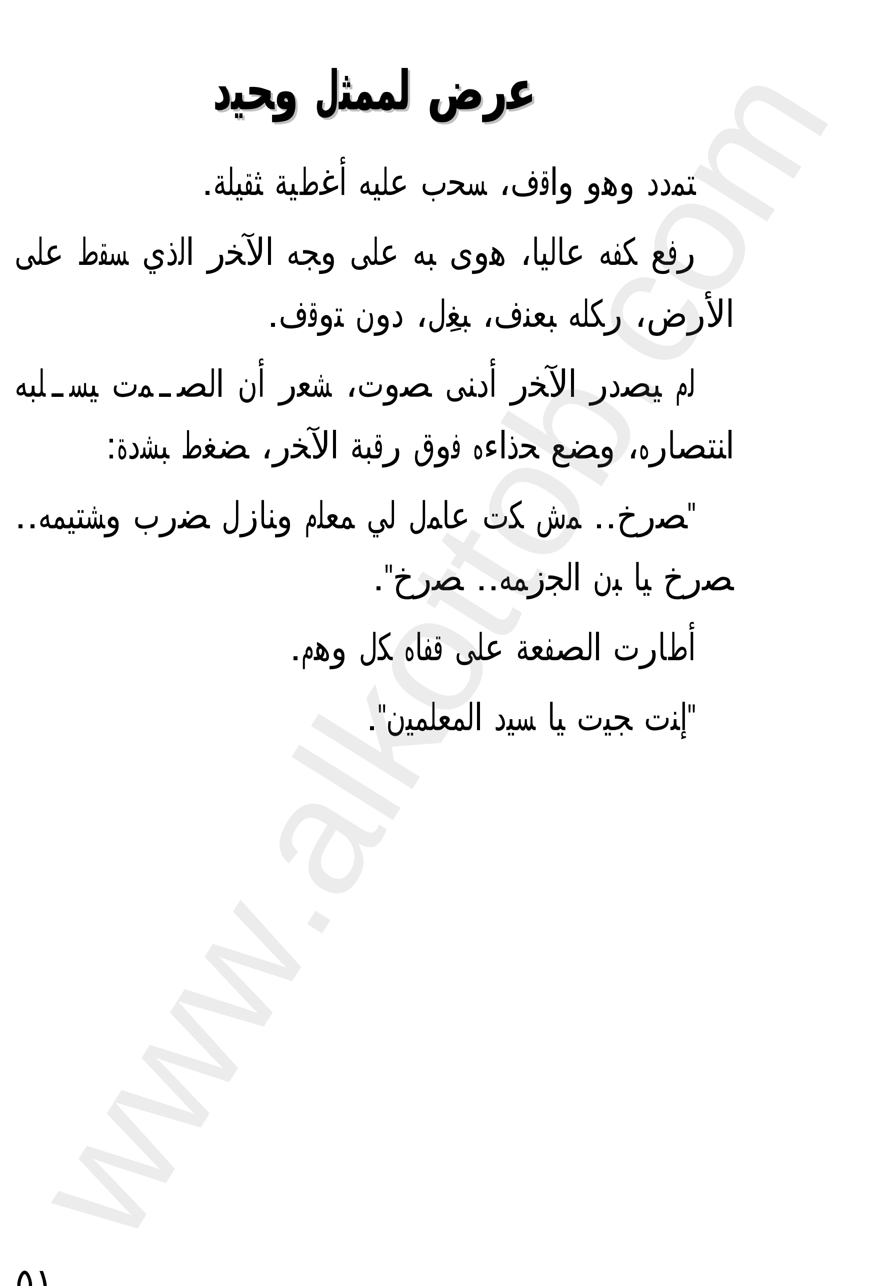
"إحنا لازم نشوف لنا فيلا ولا حاجه.. ما يصحش يـاختي ندفن هنا والواد عنده طقم زنس زي ده".

سيفرجني زميلي على صور عارية في "الكمبيوتر". منـذ أيام فتحت نافذتنا ليلاً لتواجهني - على بعـد سـنتيمترات- مؤخرة رجل يتغوط.

جلست في الكلية في الصف الأول إلى جـوار حبيبتـي، بانبهار تأملت الطقم "الجينز"، على عكس العادة أخبرتني أنها تحبني ولا تحب زميلي.

فُتح باب الحجرة:

"معلش اتأخرت عليك.. إيه؟.. عاجبك الطقم الجينز ده..؟ أنا لسه شاريه، اقفل بس الدولاب.. وزي ما اتفقنا وصـيتهم يجهزولك الأكل.. وآدي الخمسة جنيه اللـي قـايلين عليهـا علشان تشرح لي المحاضرة".



عرض لممثل وحيد

تمدد وهو واقف، سحب عليه أغطية ثقيلة.

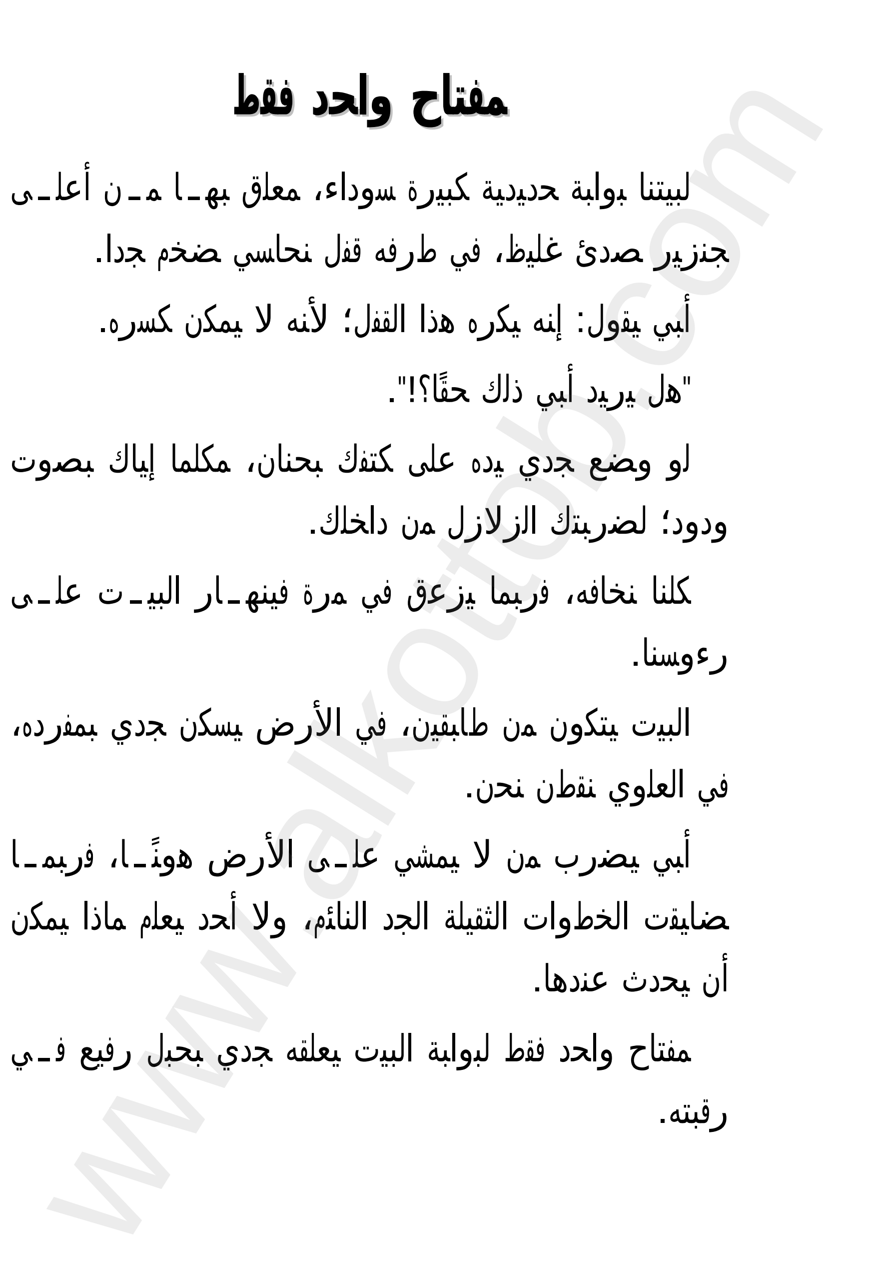
رفع كفه عاليا، هوى به على وجه الآخر الذي سقط على الأرض، ركله بعنف، بغِل، دون توقف.

لم يصدر الآخر أدنى صوت، شعر أن الصـمت يسـلبه انتصاره، وضع حذاءه فوق رقبة الآخر، ضغط بشدة:

"صرخ.. مش كت عامل لي معلم ونازل ضرب وشتيمه.. صرخ يا بن الجزمه.. صرخ".

أطارت الصفعة على قفاه كل وهم.

"إنت جيت يا سيد المعلمين".



مفتاح واحد فقط

لبيتنا بوابة حديدية كبيرة سوداء، معلق بهـا مـن أعلـى جنزير صدئ غليظ، في طرفه قفل نحاسي ضخم جدا.

أبي يقول: إنه يكره هذا القفل؛ لأنه لا يمكن كسره.

"هل يريد أبي ذلك حقًا؟!".

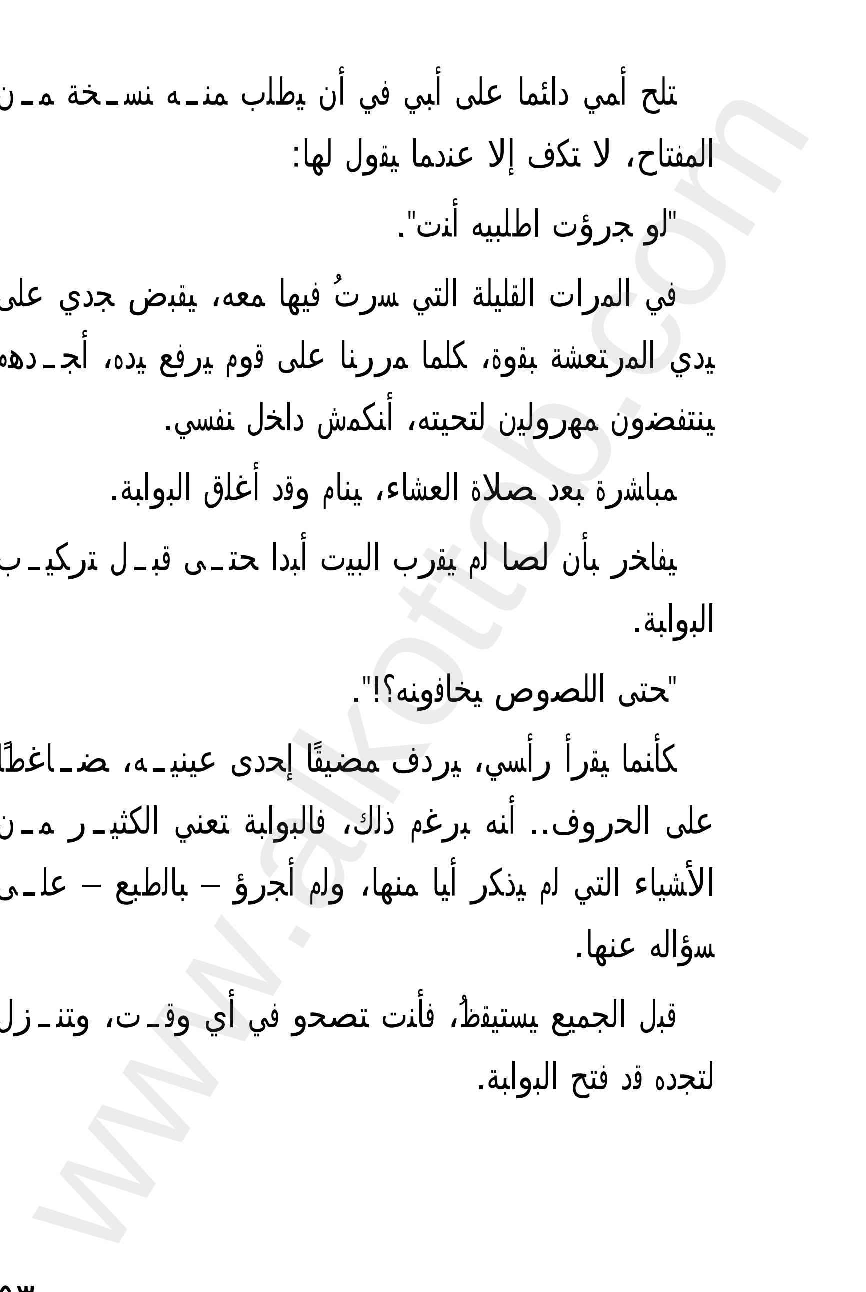
لو وضع جدي يده على كتفك بحنان، مكلما إياك بصوت ودود؛ لضربتك الزلازل من داخلك.

كلنا نخافه، فربما يزعق في مرة فينهـار البيـت علـى رءوسنا.

البيت يتكون من طابقين، في الأرض يسكن جدي بمفرده، في العلوي نقطن نحن.

أبي يضرب من لا يمشي علـى الأرض هونًـا، فربمـا ضايقت الخطوات الثقيلة الجد النائم، ولا أحد يعلم ماذا يمكن أن يحدث عندها.

مفتاح واحد فقط لبوابة البيت يعلقه جدي بحبل رفيع فـي رقبته.



تلح أمي دائما على أبي في أن يطلب منـه نسـخة مـن المفتاح، لا تكف إلا عندما يقول لها:

"لو جرؤت اطلبيه أنت".

في المرات القليلة التي سرتُ فيها معه، يقبض جدي على يدي المرتعشة بقوة، كلما مررنا على قوم يرفع يده، أجـدهم ينتفضون مهرولين لتحيته، أنكمش داخل نفسي.

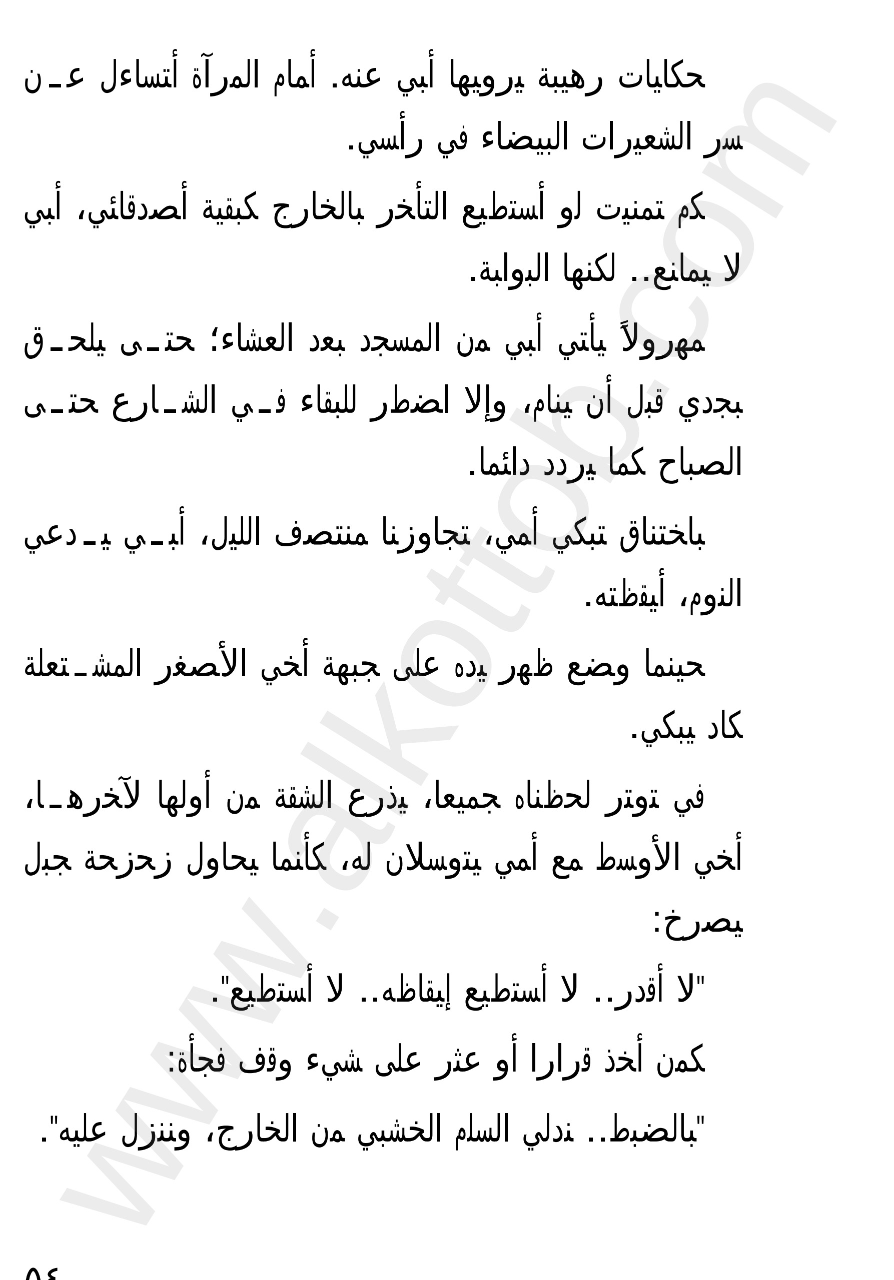
مباشرة بعد صلاة العشاء، ينام وقد أغلق البوابة.

يفاخر بأن لصا لم يقرب البيت أبدا حتـى قبـل تركيـب البوابة.

"حتى اللصوص يخافونه؟!".

كأنما يقرأ رأسي، يردف مضيقًا إحدى عينيـه، ضـاغطًا على الحروف.. أنه برغم ذلك، فالبوابة تعني الكثيـر مـن الأشياء التي لم يذكر أيا منها، ولم أجرؤ – بالطبع – علـى سؤاله عنها.

قبل الجميع يستيقظُ، فأنت تصحو في أي وقـت، وتنـزل لتجده قد فتح البوابة.



حكايات رهيبة يرويها أبي عنه. أمام المرآة أتساءل عـن سر الشعيرات البيضاء في رأسي.

كم تمنيت لو أستطيع التأخر بالخارج كبقية أصدقائي، أبي لا يمانع.. لكنها البوابة.

مهرولاً يأتي أبي من المسجد بعد العشاء؛ حتـى يلحـق بجدي قبل أن ينام، وإلا اضطر للبقاء فـي الشـارع حتـى الصباح كما يردد دائما.

باختناق تبكي أمي، تجاوزنا منتصف الليل، أبـي يـدعي النوم، أيقظته.

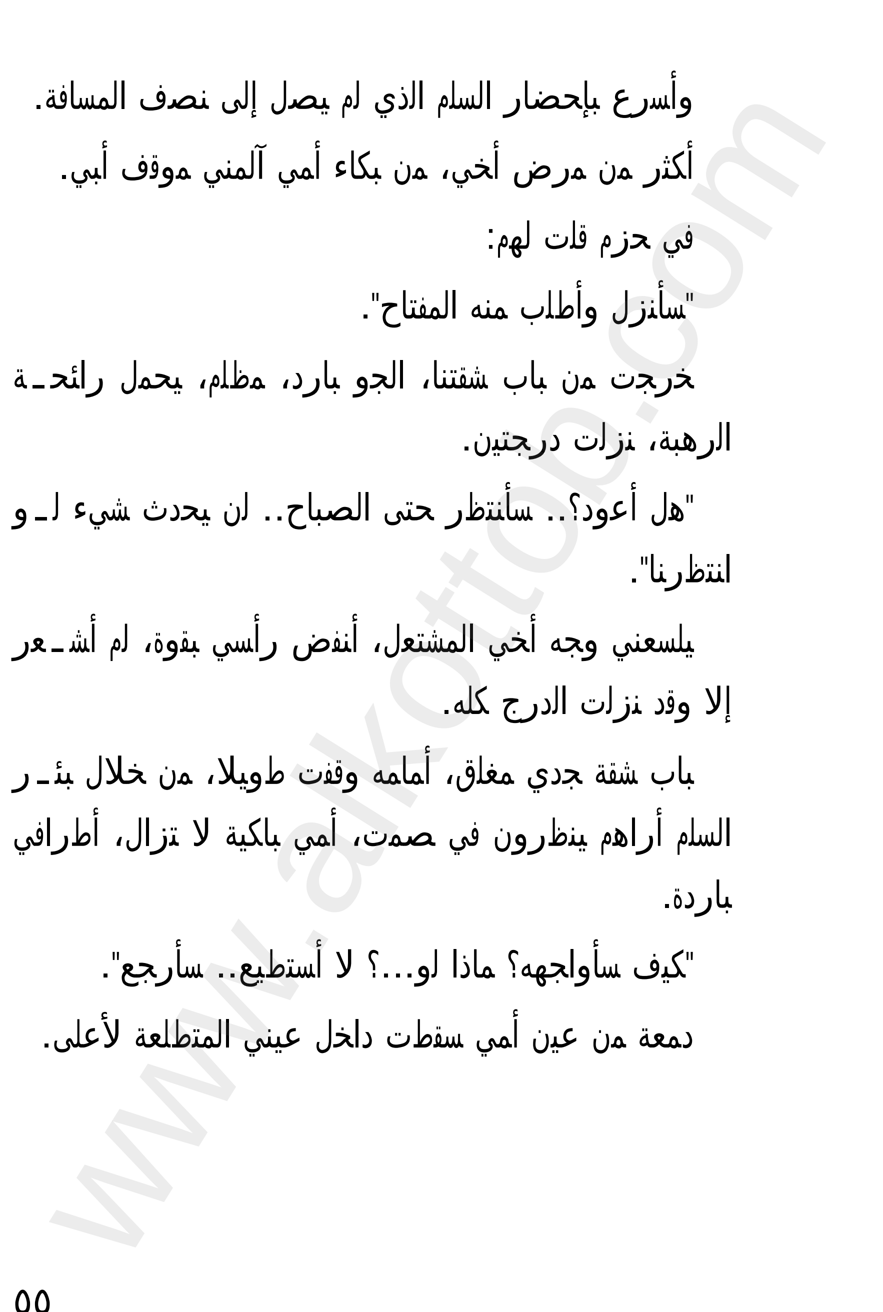
حينما وضع ظهر يده على جبهة أخي الأصغر المشـتعلة كاد يبكي.

في توتر لحظناه جميعا، يذرع الشقة من أولها لآخرهـا، أخي الأوسط مع أمي يتوسلان له، كأنما يحاول زحزحة جبل يصرخ:

"لا أقدر.. لا أستطيع إيقاظه.. لا أستطيع".

كمن أخذ قرارا أو عثر على شيء وقف فجأة:

"بالضبط.. ندلي السلم الخشبي من الخارج، وننزل عليه".



وأسرع بإحضار السلم الذي لم يصل إلى نصف المسافة.

أكثر من مرض أخي، من بكاء أمي آلمني موقف أبي.

في حزم قلت لهم:

"سأنزل وأطلب منه المفتاح".

خرجت من باب شقتنا، الجو بارد، مظلم، يحمل رائحة الرهبة، نزلت درجتين.

"هل أعود؟.. سأنتظر حتى الصباح.. لن يحدث شيء لو انتظرنا".

يلسعني وجه أخي المشتعل، أنفض رأسي بقوة، لم أشعر إلا وقد نزلت الدرج كله.

باب شقة جدي مغلق، أمامه وقفت طويلا، من خلال بئر السلم أراهم ينظرون في صمت، أمي باكية لا تزال، أطرافي باردة.

"كيف سأواجهه؟ ماذا لو...؟ لا أستطيع.. سأرجع".

دمعة من عين أمي سقطت داخل عيني المتطلعة لأعلى.

مددت يدي.. بخوف أطرق الباب، لا رد. أطرق بتـردد، الباب كما هو، بقوة أطرق، بحسم أطرق.. بقـوة أطـرق.. بتمرد أطرق.

نسيت مرض أخي.. بكاء أمي.. البوابة.. جـدي، فقـط أطرق فأشعر أنني أكبر.. أتمدد.. أصير عملاقًا.. ماردا.

أحالت طرقاتي الليل الساكن نهارا.

من أعلى بدءوا يشجعونني، نزلوا عدة درجات، درجـات أُخَر، كلهم إلى جواري، كلنا نطرق، جدي لا يفتح، لا يفتح.

مشيت نحو البوابة، الجنزير معلق بالقفل في جانب واحد منها.

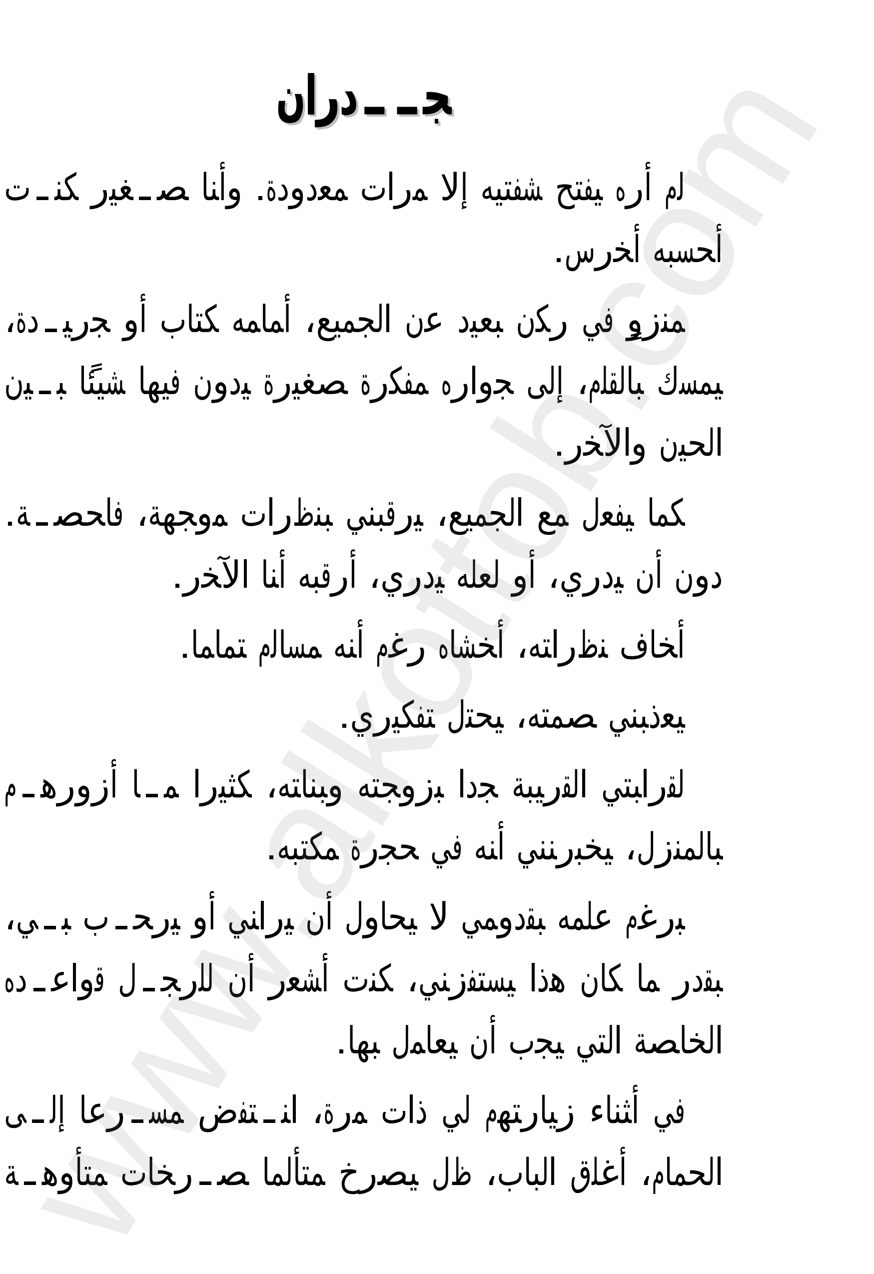
"هل انكمش هذا القفل؟"

قالها أبي.

مددت يدي نحو البوابة، أجـذبها، مطيعـة.. صـاغرة.. مسرعة انفتحت، تعجبنا، ذهلنا، مشدوهين تبادلنا النظرات.

في ريبة تساءل أخي:

"هل نسيها جدي؟.. أم كانت مفتوحة دوما؟!!"



جـدران

لم أره يفتح شفتيه إلا مرات معدودة. وأنا صـغير كنـت أحسبه أخرس.

منزوٍ في ركن بعيد عن الجميع، أمامه كتاب أو جريـدة، يمسك بالقلم، إلى جواره مفكرة صغيرة يدون فيها شيئًا بـين الحين والآخر.

كما يفعل مع الجميع، يرقبني بنظرات موجهة، فاحصـة. دون أن يدري، أو لعله يدري، أرقبه أنا الآخر.

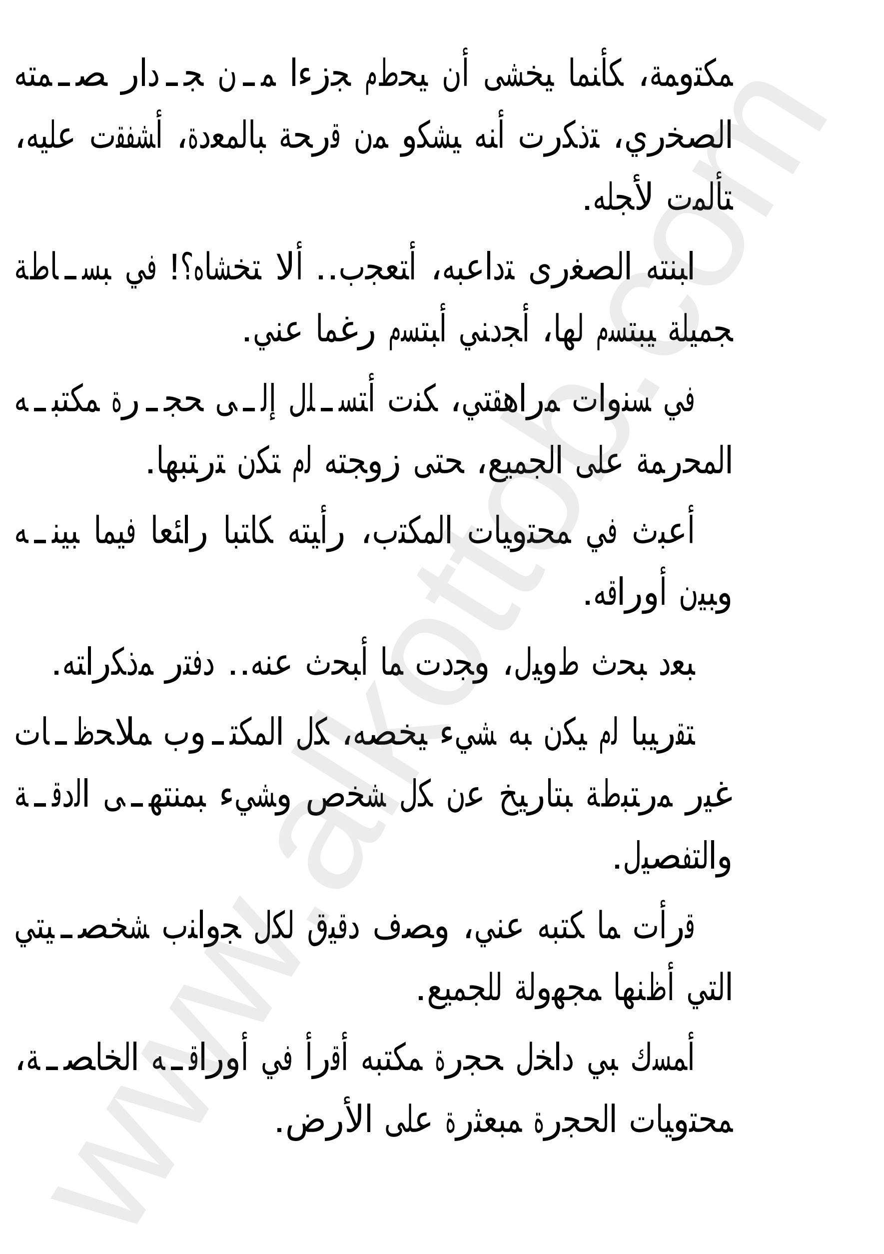
أخاف نظراته، أخشاه رغم أنه مسالم تماما.

يعذبني صمته، يحتل تفكيري.

لقرابتي القريبة جدا بزوجته وبناته، كثيرا مـا أزورهـم بالمنزل، يخبرنني أنه في حجرة مكتبه.

برغم علمه بقدومي لا يحاول أن يراني أو يرحـب بـي، بقدر ما كان هذا يستفزني، كنت أشعر أن للرجـل قواعـده الخاصة التي يجب أن يعامل بها.

في أثناء زيارتهم لي ذات مرة، انـتفض مسـرعا إلـى الحمام، أغلق الباب، ظل يصرخ متألما صـرخات متأوهـة



مكتومة، كأنما يخشى أن يحطم جزءا مـن جـدار صـمته الصخري، تذكرت أنه يشكو من قرحة بالمعدة، أشفقت عليه، تألمت لأجله.

ابنته الصغرى تداعبه، أتعجب.. ألا تخشاه؟! في بسـاطة جميلة يبتسم لها، أجدني أبتسم رغما عني.

في سنوات مراهقتي، كنت أتسـلل إلـى حجـرة مكتبـه المحرمة على الجميع، حتى زوجته لم تكن ترتبها.

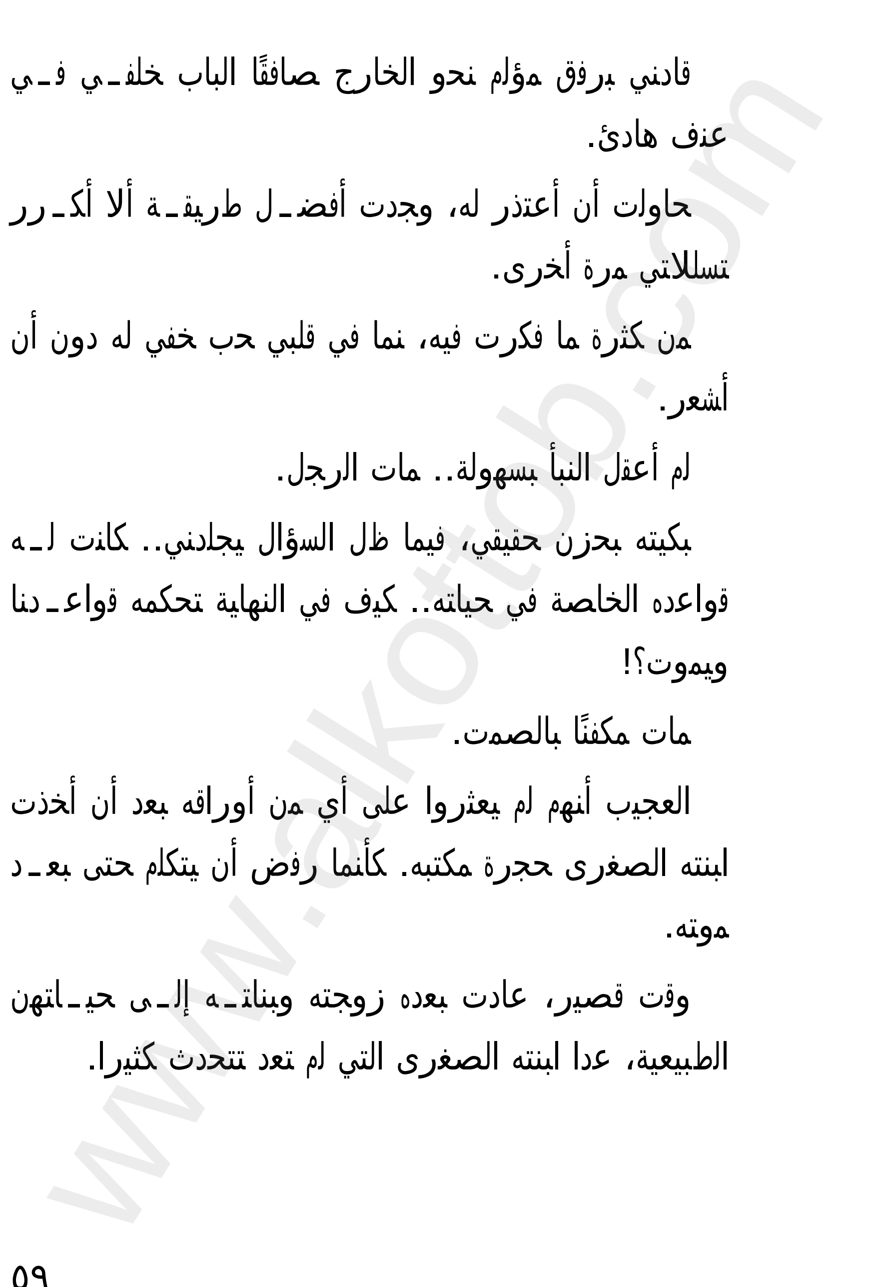
أعبث في محتويات المكتب، رأيته كاتبا رائعا فيما بينـه وبين أوراقه.

بعد بحث طويل، وجدت ما أبحث عنه.. دفتر مذكراته.

تقريبا لم يكن به شيء يخصه، كل المكتـوب ملاحظـات غير مرتبطة بتاريخ عن كل شخص وشيء بمنتهـى الدقـة والتفصيل.

قرأت ما كتبه عني، وصف دقيق لكل جوانب شخصـيتي التي أظنها مجهولة للجميع.

أمسك بي داخل حجرة مكتبه أقرأ في أوراقـه الخاصـة، محتويات الحجرة مبعثرة على الأرض.



قادني برفق مؤلم نحو الخارج صافقًا الباب خلفـي فـي عنف هادئ.

حاولت أن أعتذر له، وجدت أفضـل طريقـة ألا أكـرر تسللاتي مرة أخرى.

من كثرة ما فكرت فيه، نما في قلبي حب خفي له دون أن أشعر.

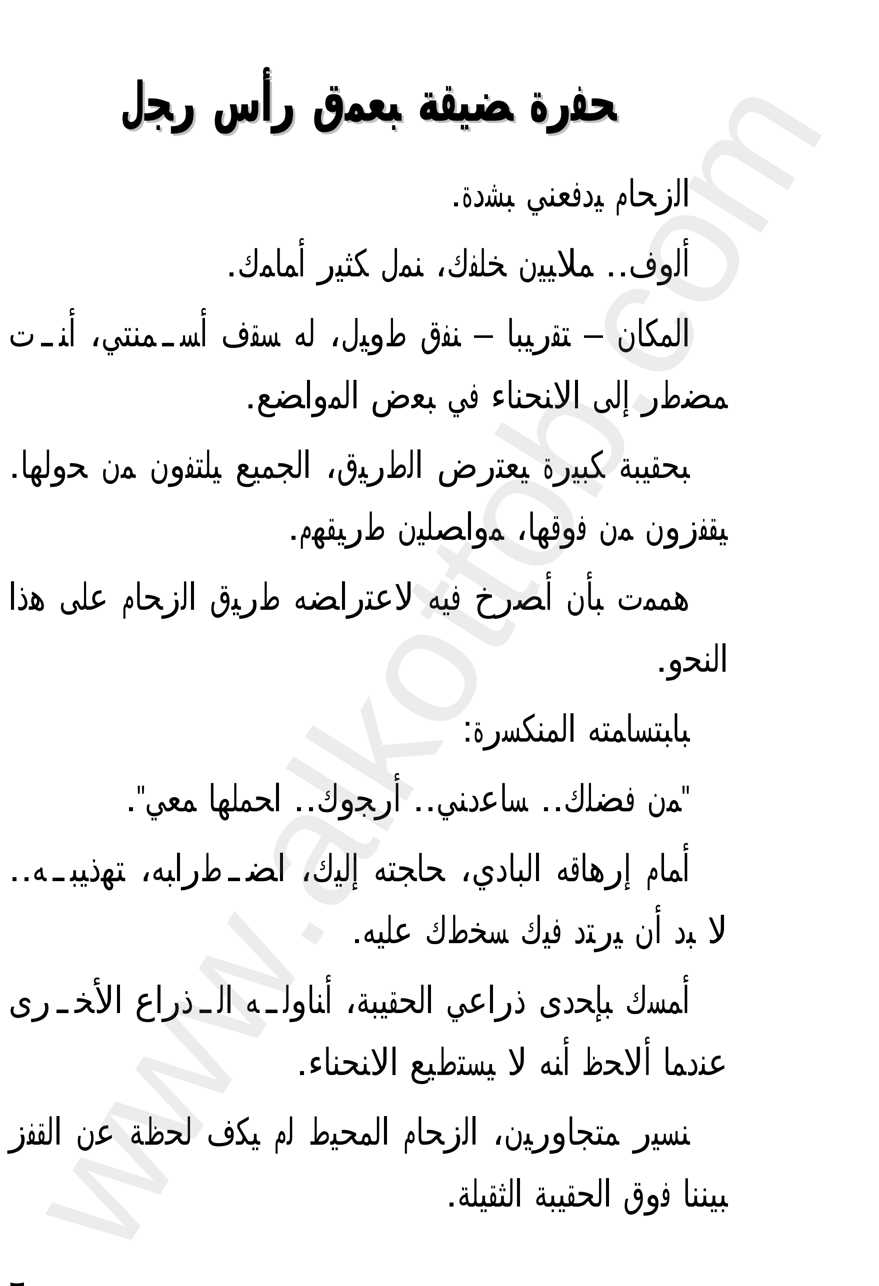
لم أعقل النبأ بسهولة.. مات الرجل.

بكيته بحزن حقيقي، فيما ظل السؤال يجادلني.. كانت لـه قواعده الخاصة في حياته.. كيف في النهاية تحكمه قواعـدنا ويموت؟!

مات مكفنًا بالصمت.

العجيب أنهم لم يعثروا على أي من أوراقه بعد أن أخذت ابنته الصغرى حجرة مكتبه. كأنما رفض أن يتكلم حتى بعـد موته.

وقت قصير، عادت بعده زوجته وبناتـه إلـى حيـاتهن الطبيعية، عدا ابنته الصغرى التي لم تعد تتحدث كثيرا.



حفرة ضيقة بعمق رأس رجل

الزحام يدفعني بشدة.

ألوف.. ملايين خلفك، نمل كثير أمامك.

المكان – تقريبا – نفق طويل، له سقف أسمنتي، أنت مضطر إلى الانحناء في بعض المواضع.

بحقيبة كبيرة يعترض الطريق، الجميع يلتفون من حولها. يقفزون من فوقها، مواصلين طريقهم.

هممت بأن أصرخ فيه لاعتراضه طريق الزحام على هذا النحو.

بابتسامته المنكسرة:

"من فضلك.. ساعدني.. أرجوك.. احملها معي".

أمام إرهاقه البادي، حاجته إليك، اضطرابه، تهذيبه.. لا بد أن يرتد فيك سخطك عليه.

أمسك بإحدى ذراعي الحقيبة، أناوله الذراع الأخرى عندما ألاحظ أنه لا يستطيع الانحناء.

نسير متجاورين، الزحام المحيط لم يكف لحظة عن القفز بيننا فوق الحقيبة الثقيلة.

يعرج بي إلى طريق مخالف تماما لطريقي الأول، يلحـظ اضطرابي:

"أشكرك.. أسديت لي خدمة عظيمة.. بإمكانك الرجـوع.. سأنتظر شخصا آخر".

قليل من الخجل، بعض الوقت الزائد سيجذبانك معه إلـى الأمام.

يقول إنه يريد محطة القطار.

الأيدي التي نسألها تشير بنفس سـرعة هرولتهـا إلـى الأمام.. إلى اليسار.. إلى اليمين.. تعبت. واضح أنه تعبـان، يكاد يسقط، يخرج صوته مذبوحا:

"استفرغت ملء صفيحة دما".

بابتسامة فرشت فيها بساط رحمة، أربت على كتفه:

"ألف سلامة".

لكنك بالطبع لن تتناول منه ذراع الحقيبة الأخرى، حتـى لن تفكر في ذلك.

ما كل هذا الثقل؟! تفكر فـي أن تقتـرح عليـه مبادلـة الأماكن، تخشى أن يتركها لك، تصمت.


نفق بالفعل، في نهايته – التي اقتربنا منها – تبدو سـلالم لا عدد لها.

يبتسم مترنحا، يشير إلى أعلى:

"هنا محطة القطار".

على الضوء المتسلل من أعلى، ألاحظ تشابها إلى حد مـا بين ملامحه وملامحي. ساقي سرواله مبللتين برذاذ الدم الذي لا يزال ورديا.

تسقط الحقيبة منه، ينحني، يتنفس بصعوبة.

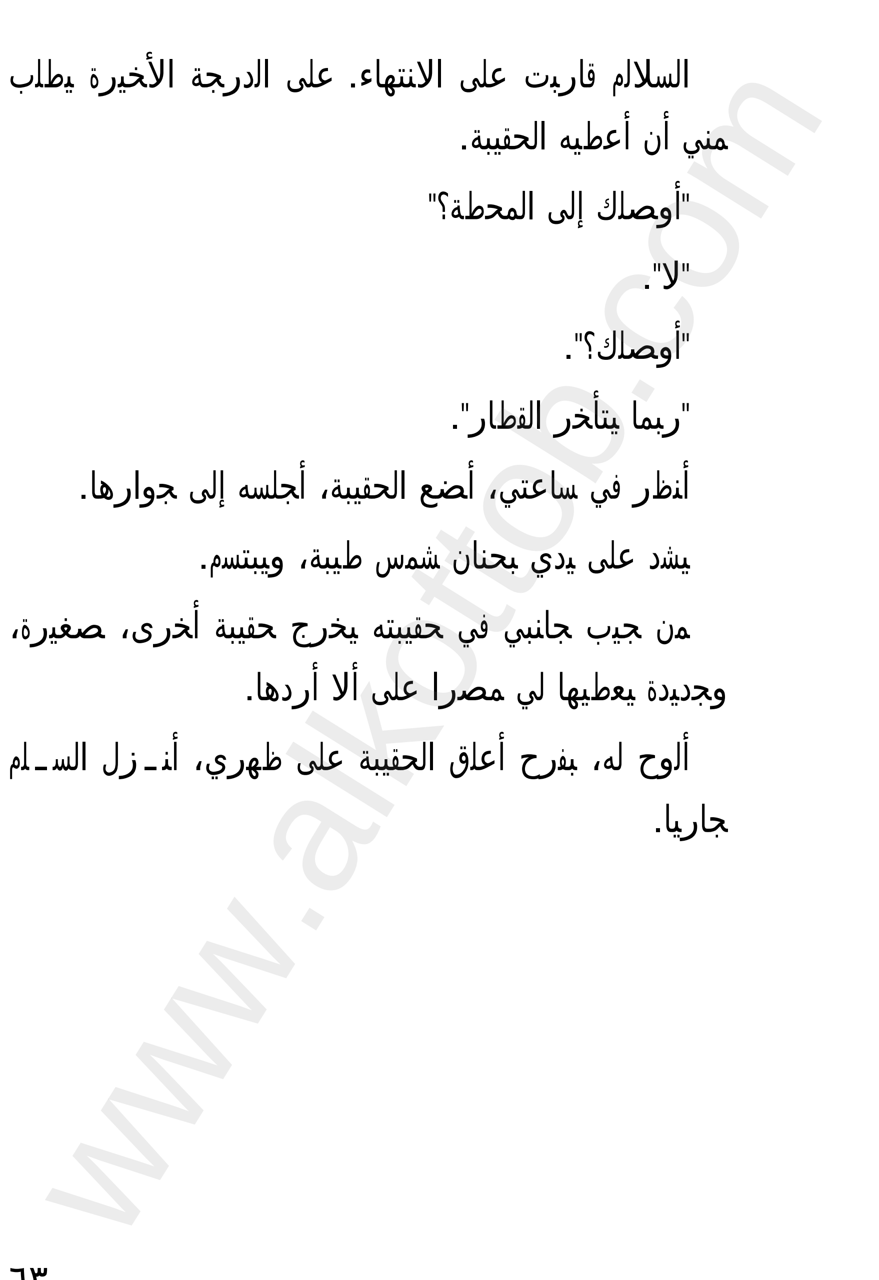
فجأة يتمزق قلبك شـفقة عليـه، تشـعر بشـيء كتلـك الارتجافات القوية التي تسبق البكاء مباشرة تجتاحك، تنحني إليه:

"نجلس قليلاً؟"

يشير بيده إلى الأمام.

بيدي الأخرى أمسك بكلتا ذراعي الحقيبة، فرحت للحظـة أنني أرحت يدي التي وجدتها تسلخت تماما.

نواصل صعود السلم، أميل بجذعي ناحية الحقيبة بصورة لافتة للنظر، بينما أسنده بيدي الأخرى المتسلخة.



السلالم قاربت على الانتهاء. على الدرجة الأخيرة يطلب مني أن أعطيه الحقيبة.

"أوصلك إلى المحطة؟"

"لا".

"أوصلك؟".

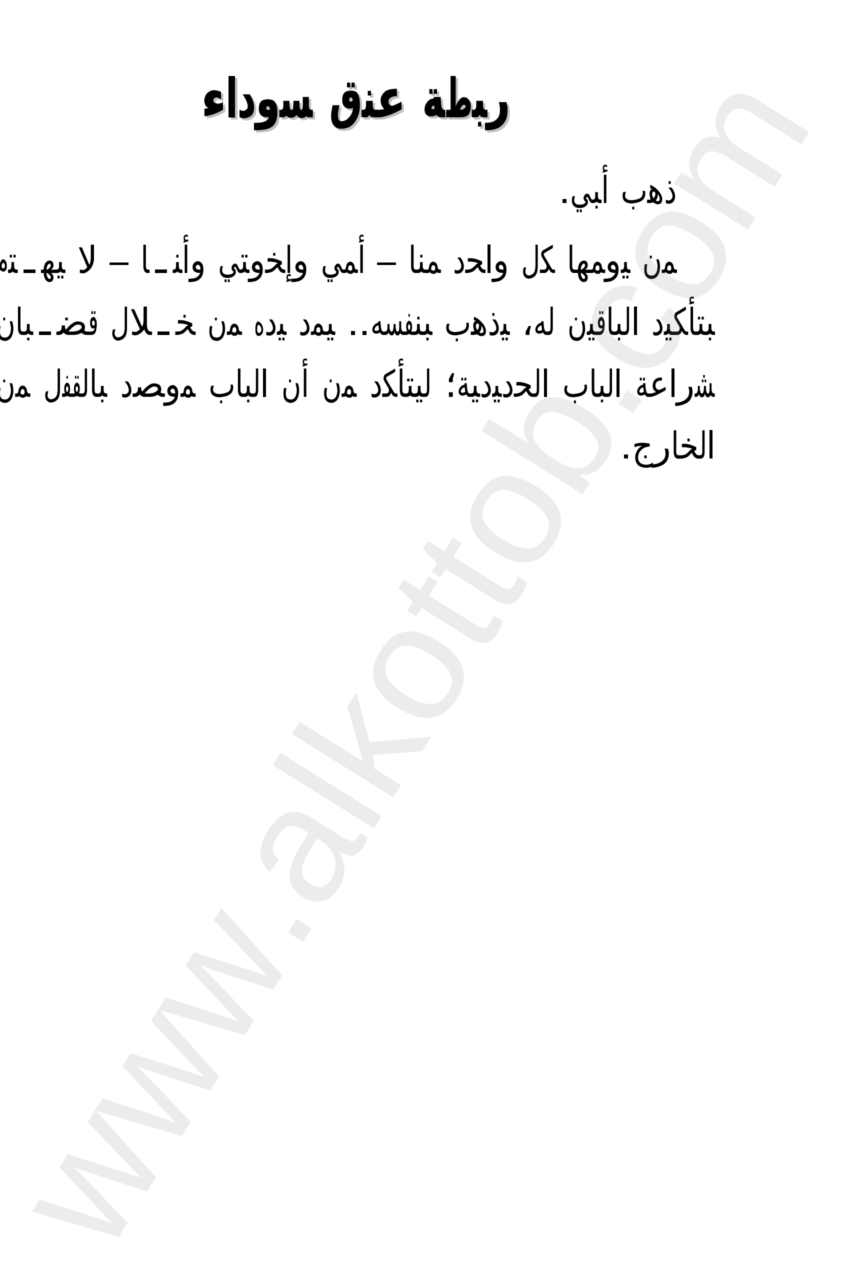
"ربما يتأخر القطار".

أنظر في ساعتي، أضع الحقيبة، أجلسه إلى جوارها.

يشد على يدي بحنان شمس طيبة، ويبتسم.

من جيب جانبي في حقيبته يخرج حقيبة أخرى، صغيرة، وجديدة يعطيها لي مصرا على ألا أردها.

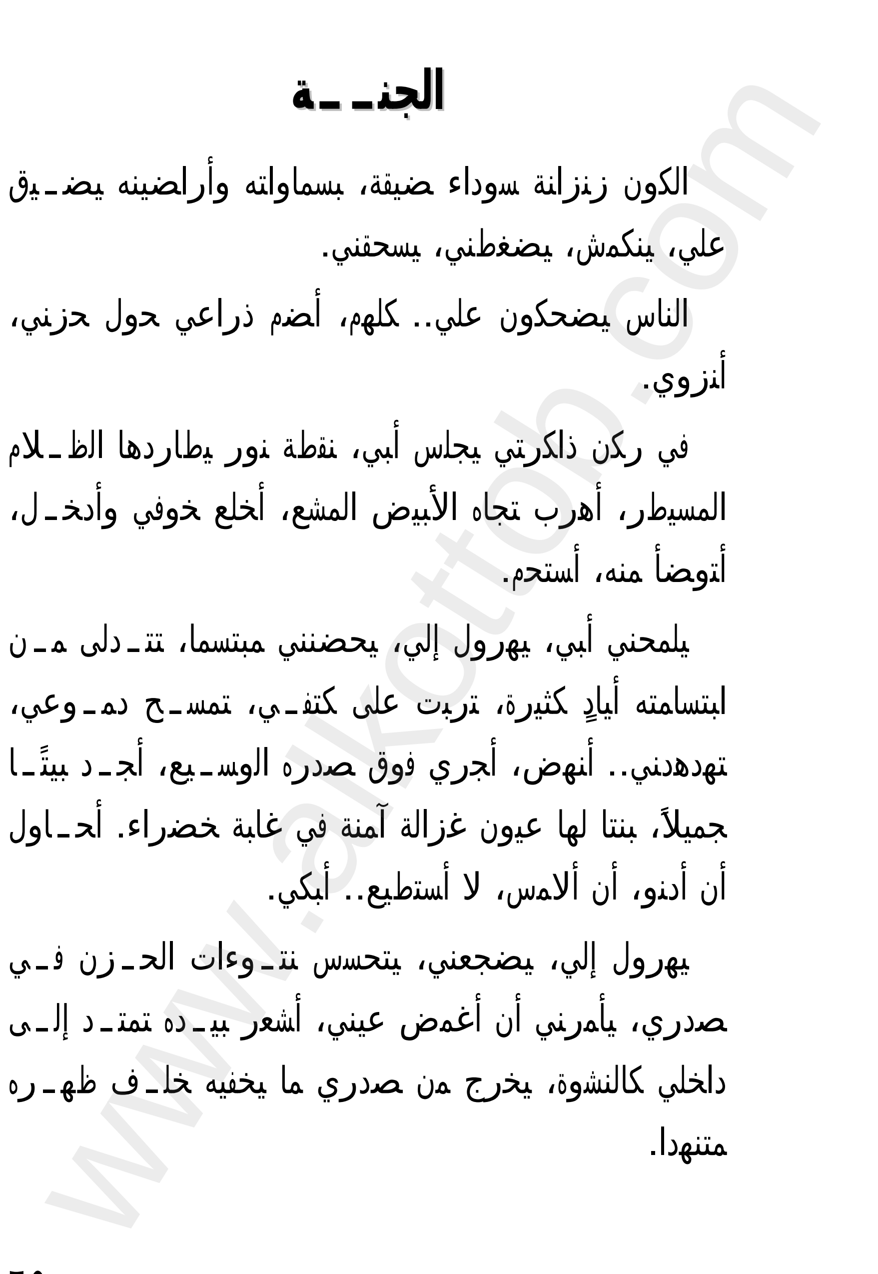
ألوح له، بفرح أعلق الحقيبة على ظهري، أنـزل السـلم جاريا.



ربطة عنق سوداء

ذهب أبي.

من يومها كل واحد منا – أمي وإخوتي وأنـا – لا يهـتم بتأكيد الباقين له، يذهب بنفسه.. يمد يده من خـلال قضـبان شراعة الباب الحديدية؛ ليتأكد من أن الباب موصد بالقفل من الخارج.



الجنـــة

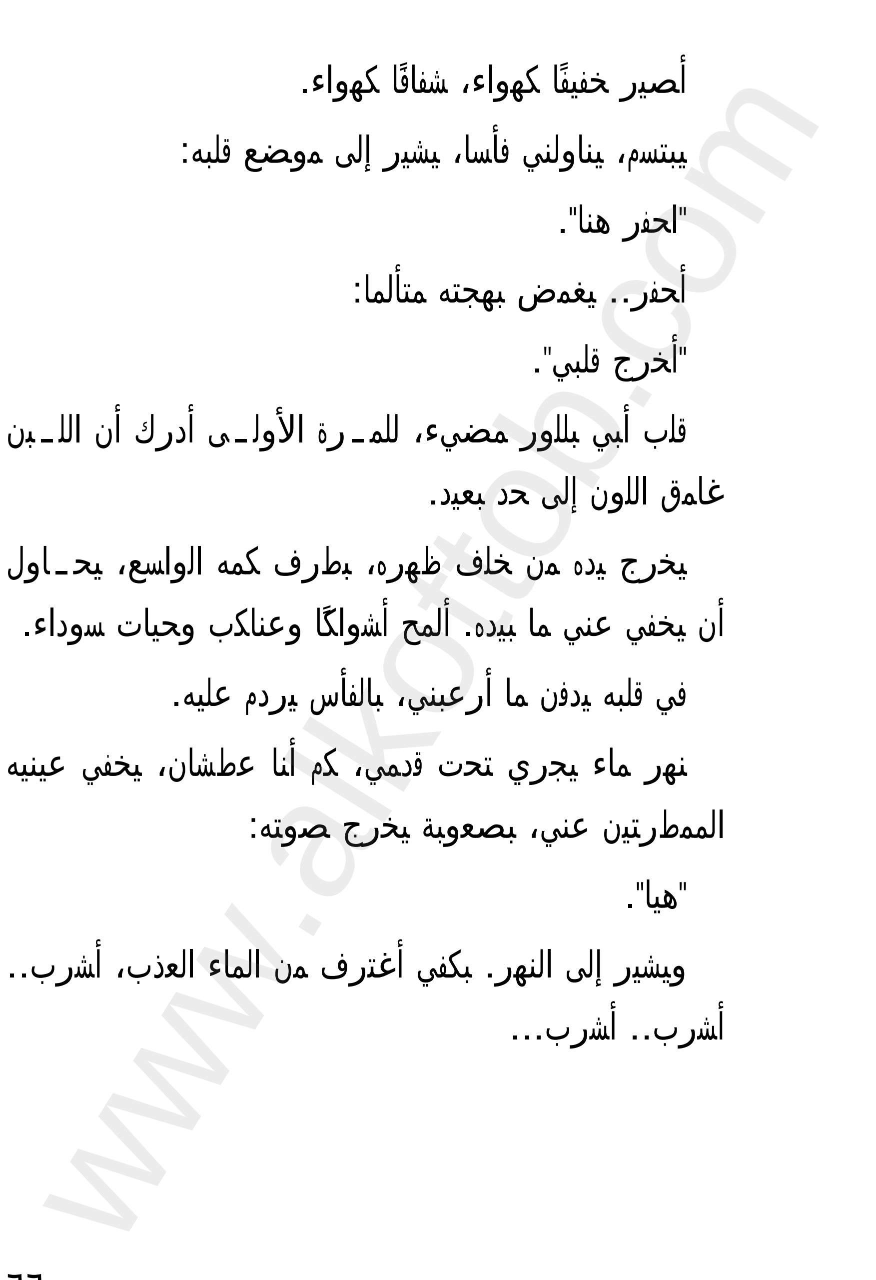
الكون زنزانة سوداء ضيقة، بسماواته وأراضينه يضـيق علي، ينكمش، يضغطني، يسحقني.

الناس يضحكون علي.. كلهم، أضم ذراعي حول حزني، أنزوي.

في ركن ذاكرتي يجلس أبي، نقطة نور يطاردها الظـلام المسيطر، أهرب تجاه الأبيض المشع، أخلع خوفي وأدخـل، أتوضأ منه، أستحم.

يلمحني أبي، يهرول إلي، يحضنني مبتسما، تتـدلى مـن ابتسامته أيادٍ كثيرة، تربت على كتفـي، تمسـح دمـوعي، تهدهدني.. أنهض، أجري فوق صدره الوسـيع، أجـد بيتًـا جميلاً، بنتا لها عيون غزالة آمنة في غابة خضراء. أحـاول أن أدنو، أن ألامس، لا أستطيع.. أبكي.

يهرول إلي، يضجعني، يتحسس نتـوءات الحـزن فـي صدري، يأمرني أن أغمض عيني، أشعر بيـده تمتـد إلـى داخلي كالنشوة، يخرج من صدري ما يخفيه خلـف ظهـره متنهدا.



أصير خفيفًا كهواء، شفافًا كهواء.

يبتسم، يناولني فأسا، يشير إلى موضع قلبه:

"احفر هنا".

أحفر.. يغمض بهجته متألما:

"أخرج قلبي".

قلب أبي بللور مضيء، للمـرة الأولـى أدرك أن اللـبن غامق اللون إلى حد بعيد.

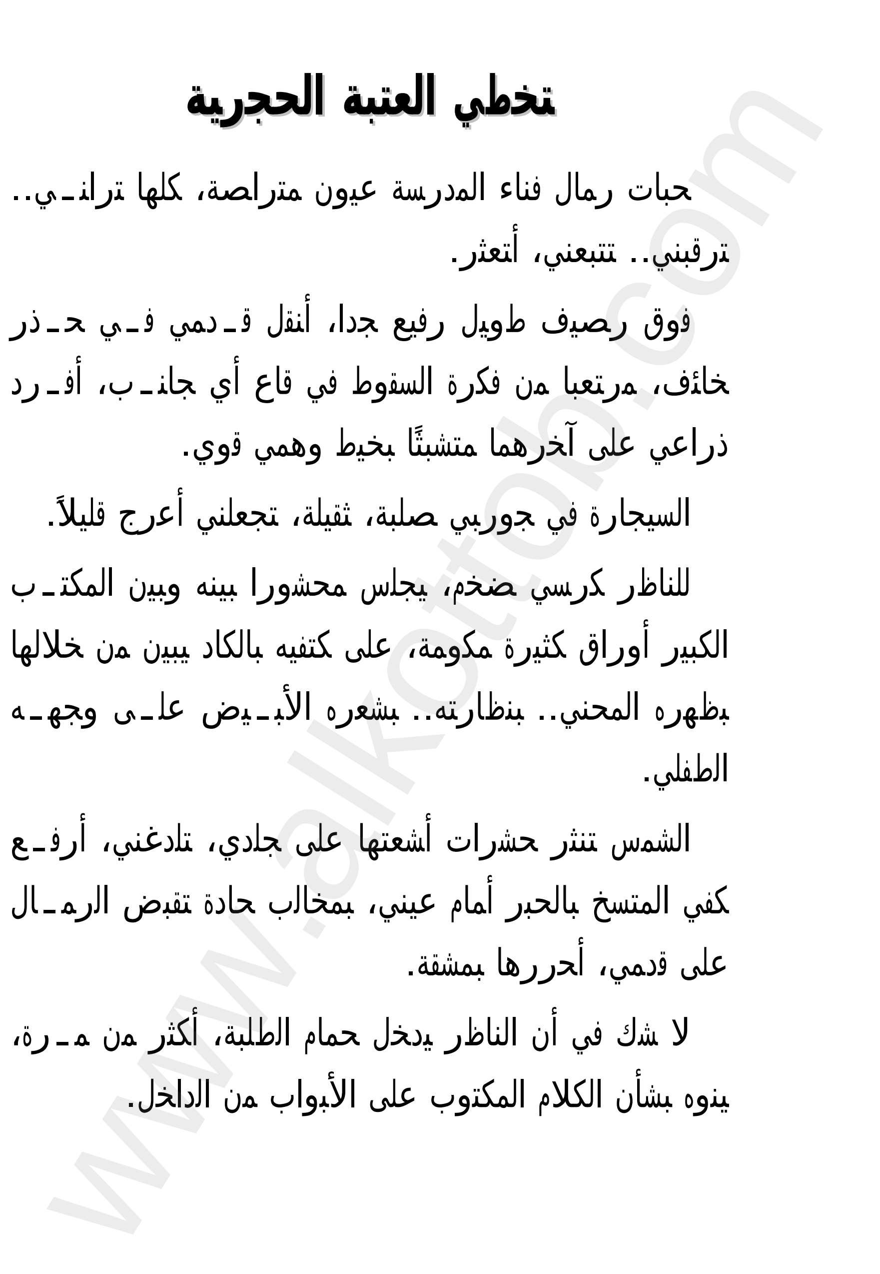
يخرج يده من خلف ظهره، بطرف كمه الواسع، يحـاول أن يخفي عني ما بيده. ألمح أشواكًا وعناكب وحيات سوداء.

في قلبه يدفن ما أرعبني، بالفأس يردم عليه.

نهر ماء يجري تحت قدمي، كم أنا عطشان، يخفي عينيه الممطرتين عني، بصعوبة يخرج صوته:

"هيا".

ويشير إلى النهر. بكفي أغترف من الماء العذب، أشرب.. أشرب.. أشرب...



تخطي العتبة الحجرية

حبات رمال فناء المدرسة عيون متراصة، كلها تراني.. ترقبني.. تتبعني، أتعثر.

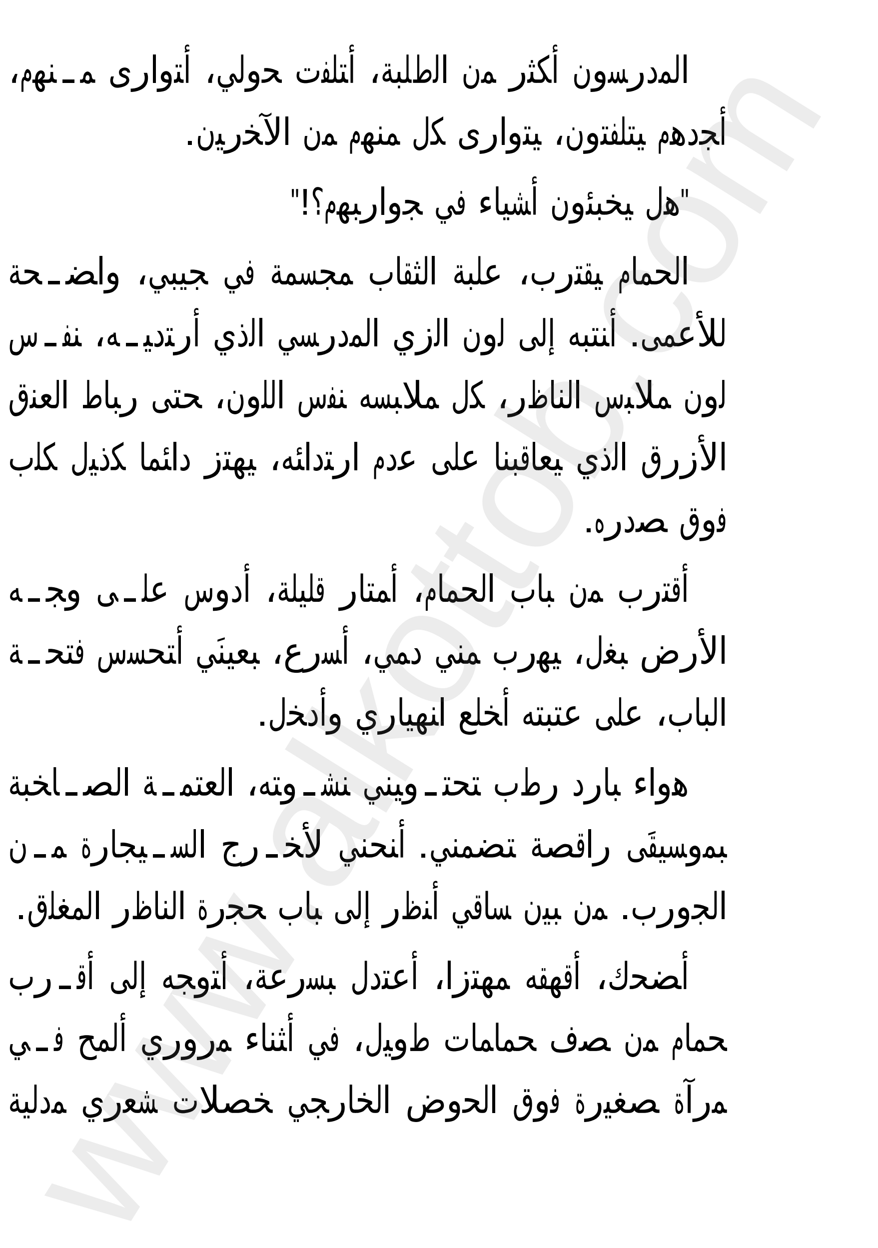
فوق رصيف طويل رفيع جدا، أنقل قدمي في حذر خائف، مرتعبا من فكرة السقوط في قاع أي جانب، أفرد ذراعي على آخرهما متشبثًا بخيط وهمي قوي.

السيجارة في جوربي صلبة، ثقيلة، تجعلني أعرج قليلاً.

للناظر كرسي ضخم، يجلس محشورا بينه وبين المكتب الكبير أوراق كثيرة مكومة، على كتفيه بالكاد يبين من خلالها بظهره المحني.. بنظارته.. بشعره الأبيض على وجهه الطفلي.

الشمس تنثر حشرات أشعتها على جلدي، تلدغني، أرفع كفي المتسخ بالحبر أمام عيني، بمخالب حادة تقبض الرمال على قدمي، أحررها بمشقة.

لا شك في أن الناظر يدخل حمام الطلبة، أكثر من مرة، ينوه بشأن الكلام المكتوب على الأبواب من الداخل.



المدرسون أكثر من الطلبة، أتلفت حولي، أتوارى منهم، أجدهم يتلفتون، يتوارى كل منهم من الآخرين.

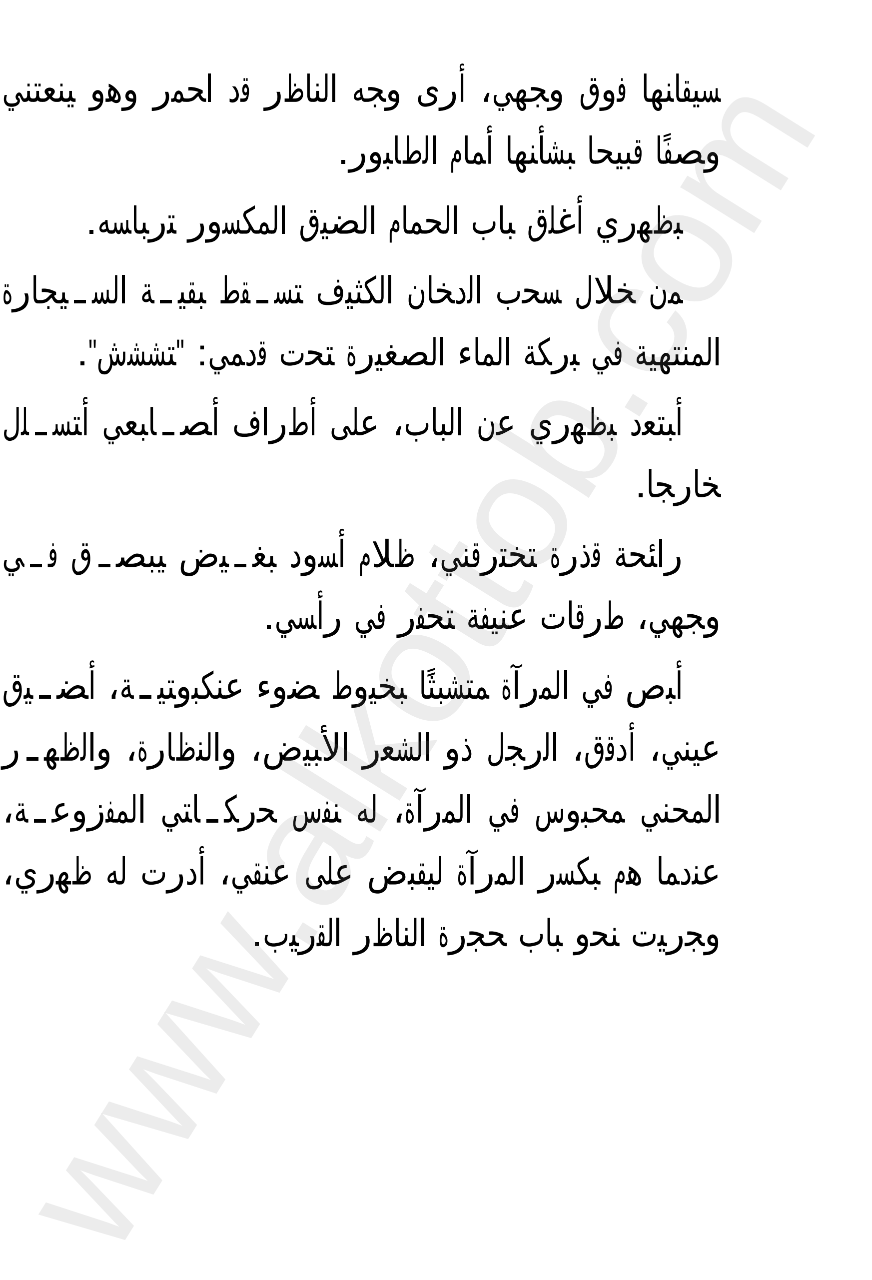
"هل يخبئون أشياء في جواربهم؟!"

الحمام يقترب، علبة الثقاب مجسمة في جيبي، واضحة للأعمى. أنتبه إلى لون الزي المدرسي الذي أرتديه، نفس لون ملابس الناظر، كل ملابسه نفس اللون، حتى رباط العنق الأزرق الذي يعاقبنا على عدم ارتدائه، يهتز دائما كذيل كلب فوق صدره.

أقترب من باب الحمام، أمتار قليلة، أدوس على وجه الأرض بغل، يهرب مني دمي، أسرع، بعينَي أتحسس فتحة الباب، على عتبته أخلع انهياري وأدخل.

هواء بارد رطب تحتويني نشوته، العتمة الصاخبة بموسيقَى راقصة تضمني. أنحني لأخرج السيجارة من الجورب. من بين ساقي أنظر إلى باب حجرة الناظر المغلق.

أضحك، أقهقه مهتزا، أعتدل بسرعة، أتوجه إلى أقرب حمام من صف حمامات طويل، في أثناء مروري ألمح في مرآة صغيرة فوق الحوض الخارجي خصلات شعري مدلية



سيقانها فوق وجهي، أرى وجه الناظر قد احمر وهو ينعتني وصفًا قبيحا بشأنها أمام الطابور.

بظهري أغلق باب الحمام الضيق المكسور تربابسه.

من خلال سحب الدخان الكثيف تسـقط بقيـة السـيجارة المنتهية في بركة الماء الصغيرة تحت قدمي: "تششش".

أبتعد بظهري عن الباب، على أطراف أصـابعي أتسـلل خارجا.

رائحة قذرة تخترقني، ظلام أسود بغـيض يبصـق فـي وجهي، طرقات عنيفة تحفر في رأسي.

أبص في المرآة متشبثًا بخيوط ضوء عنكبوتيـة، أضـيق عيني، أدقق، الرجل ذو الشعر الأبيض، والنظارة، والظهـر المحني محبوس في المرآة، له نفس حركـاتي المفزوعـة، عندما هم بكسر المرآة ليقبض على عنقي، أدرت له ظهري، وجريت نحو باب حجرة الناظر القريب.

الخروج مع القافلة

إعادة تلوين

استحالت ذاكرتي إلى مصفاة لم يتبق بداخلها سوى الهموم الضخمة.. الهموم اللازجة.

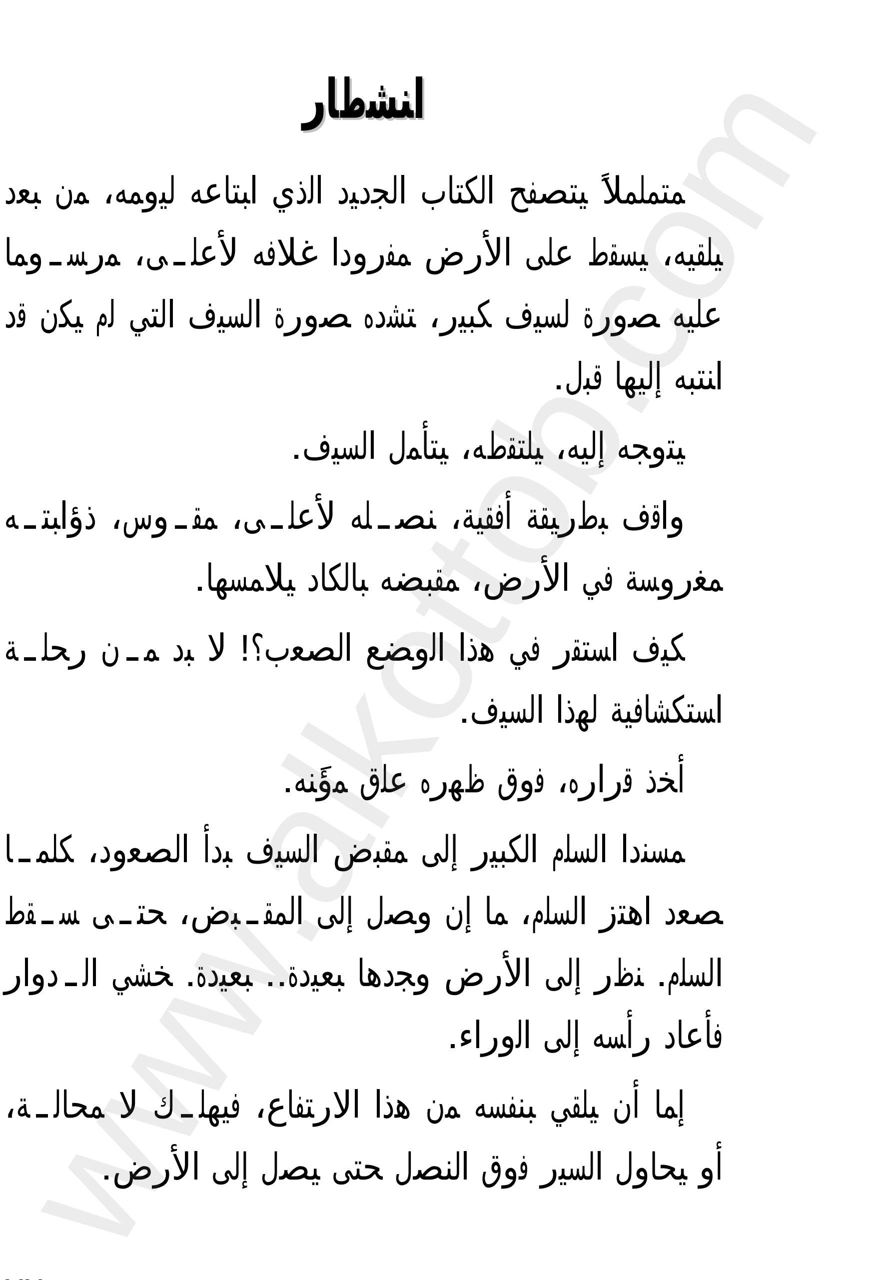
أنقب عن زهرة.. عصفور.. قلم.

أنزلق من أحد الثقوب إلى قفص الحاضر، تنعق الغربان، تتخبط الحدآت.

كل الأفراخ الصغيرة تهرب من فتحات القفص، ما تبقى تنهضه الحدآت، الغربان تنتظر الجيف.

بأصابع مرتجفة أجذب درج القادم، ثمة ورقة مطوية، أفتحها، بيضاء.

بسعادة طفل أرسم قلما.. عصفورا.. زهرة.. سلما طويلاً.



انشطار

متململاً يتصفح الكتاب الجديد الذي ابتاعه ليومه، من بعد يلقيه، يسقط على الأرض مفرودا غلافه لأعلى، مرسوما عليه صورة لسيف كبير، تشده صورة السيف التي لم يكن قد انتبه إليها قبل.

يتوجه إليه، يلتقطه، يتأمل السيف.

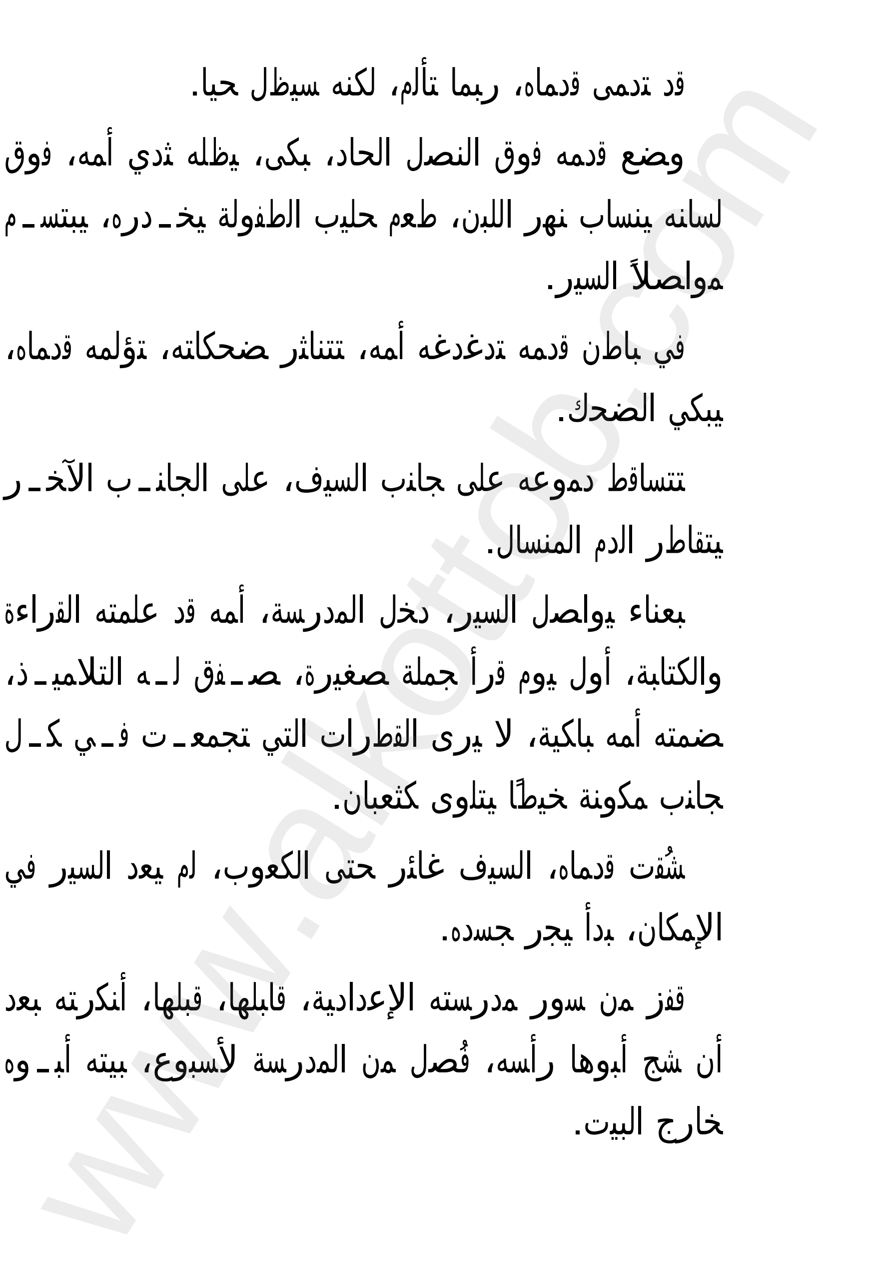
واقف بطريقة أفقية، نصله لأعلى، مقوس، ذؤابته مغروسة في الأرض، مقبضه بالكاد يلامسها.

كيف استقر في هذا الوضع الصعب؟! لا بد من رحلة استكشافية لهذا السيف.

أخذ قراره، فوق ظهره علق مؤنه.

مسندا السلم الكبير إلى مقبض السيف بدأ الصعود، كلما صعد اهتز السلم، ما إن وصل إلى المقبض، حتى سقط السلم. نظر إلى الأرض وجدها بعيدة.. بعيدة. خشي الدوار فأعاد رأسه إلى الوراء.

إما أن يلقي بنفسه من هذا الارتفاع، فيهلك لا محالة، أو يحاول السير فوق النصل حتى يصل إلى الأرض.



قد تدمى قدماه، ربما تألم، لكنه سيظل حيا.

وضع قدمه فوق النصل الحاد، بكى، يظله ثدي أمه، فوق لسانه ينساب نهر اللبن، طعم حليب الطفولة يخدره، يبتسم مواصلاً السير.

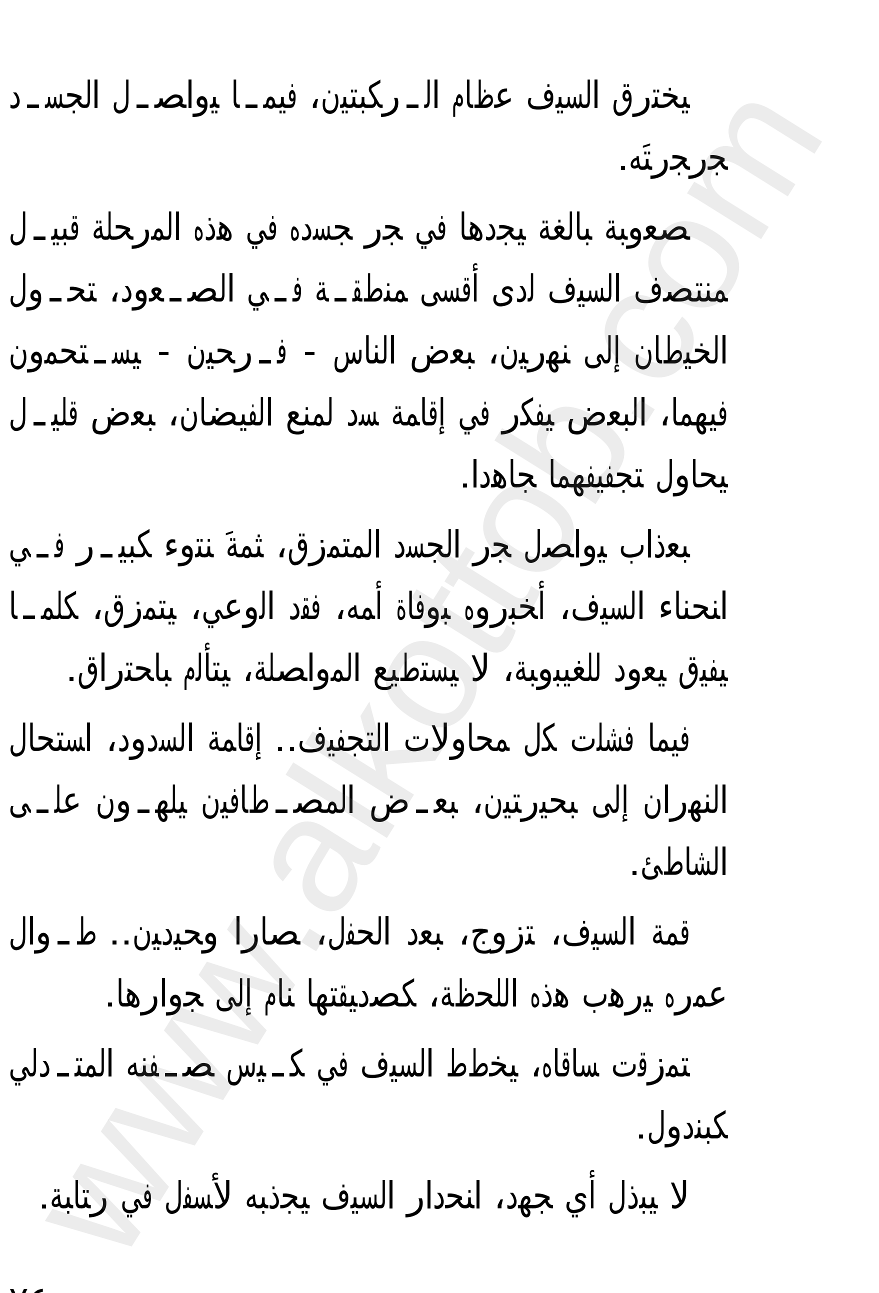
في باطن قدمه تدغدغه أمه، تتناثر ضحكاته، تؤلمه قدماه، يبكي الضحك.

تتساقط دموعه على جانب السيف، على الجانب الآخر يتقاطر الدم المنسال.

بعناء يواصل السير، دخل المدرسة، أمه قد علمته القراءة والكتابة، أول يوم قرأ جملة صغيرة، صفق له التلاميذ، ضمته أمه باكية، لا يرى القطرات التي تجمعت في كل جانب مكونة خيطًا يتلوى كثعبان.

شُقت قدماه، السيف غائر حتى الكعوب، لم يعد السير في الإمكان، بدأ يجر جسده.

قفز من سور مدرسته الإعدادية، قابلها، قبلها، أنكرته بعد أن شج أبوها رأسه، فُصل من المدرسة لأسبوع، بيته أبوه خارج البيت.



يخترق السيف عظام الـركبتين، فيمـا يواصـل الجسـد جرجرتَه.

صعوبة بالغة يجدها في جر جسده في هذه المرحلة قبيـل منتصف السيف لدى أقسى منطقـة فـي الصـعود، تحـول الخيطان إلى نهرين، بعض الناس - فـرحين - يسـتحمون فيهما، البعض يفكر في إقامة سد لمنع الفيضان، بعض قليـل يحاول تجفيفهما جاهدا.

بعذاب يواصل جر الجسد المتمزق، ثمةَ نتوء كبيـر فـي انحناء السيف، أخبروه بوفاة أمه، فقد الوعي، يتمزق، كلمـا يفيق يعود للغيبوبة، لا يستطيع المواصلة، يتألم باحتراق.

فيما فشلت كل محاولات التجفيف.. إقامة السدود، استحال النهران إلى بحيرتين، بعـض المصـطافين يلهـون علـى الشاطئ.

قمة السيف، تزوج، بعد الحفل، صارا وحيدين.. طـوال عمره يرهب هذه اللحظة، كصديقتها نام إلى جوارها.

تمزقت ساقاه، يخطط السيف في كـيس صـفنه المتـدلي كبندول.

لا يبذل أي جهد، انحدار السيف يجذبه لأسفل في رتابة.

من أعلى يتفرج على البحرين أسفل السيف مبتسما.

برغم التمزق، ثمة متعة في الانزلاق، أنجبـت زوجتـه، فرح باكيا.

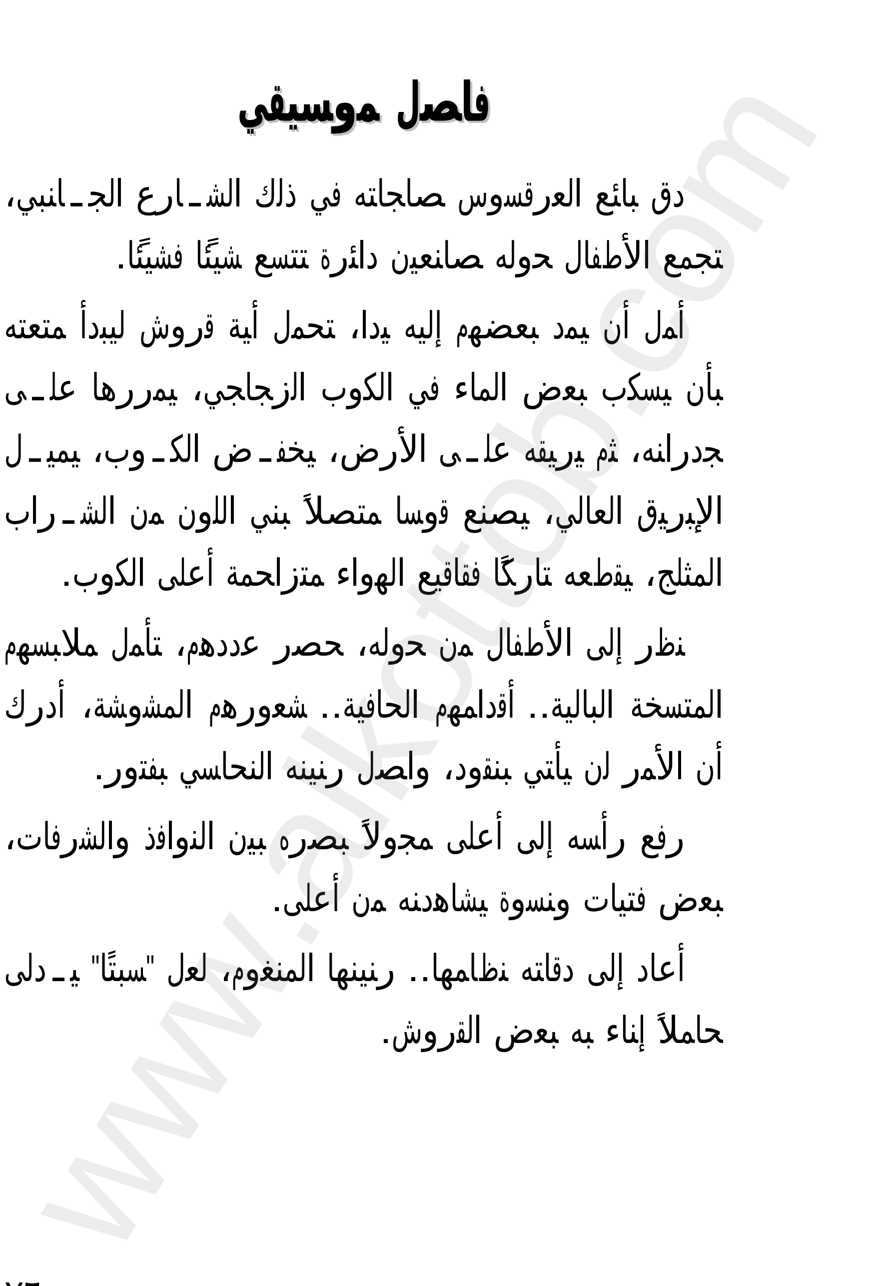
يعلم ابنته السير على خط مستوٍ، قدم للأمام، الأخرى إلى الخلف، على نفس الاستقامة.

اهتزازات، ارتدادات، شاب يقبل ابنته على درج العمارة.

كاد يلقي نفسه في أحد البحرين، تراجع حينما تذكر جهله بالسباحة.

تخرجت ابنته، يحتضنها، يبكي، يبتسـم، يبكـي، يـزداد الانحدار، سعيد جدا، يتمزق صدره الضعيف.

حفل تقدير.. فراغ.. وحدة.. أدوية.. شـيخوخة، تجـاوز السيف العينين، لا أحد يشعر به.. مستشفَى.. عناية مركزة.. غلالة رقيقة من جلد الجمجمة.. تـ.. تـ.. مز.. ق.



فاصل موسيقي

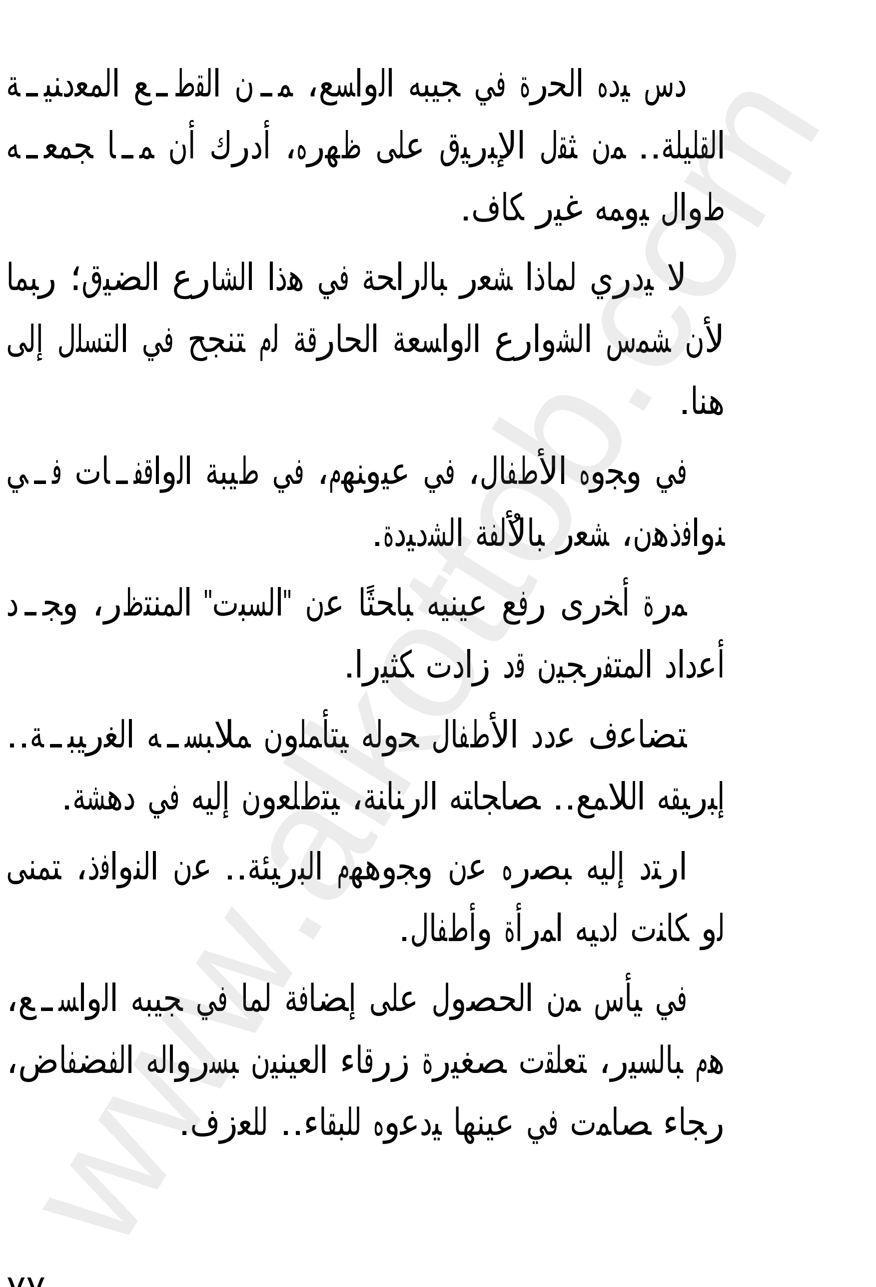
دق بائع العرقسوس صاجاته في ذلك الشـارع الجـانبي، تجمع الأطفال حوله صانعين دائرة تتسع شيئًا فشيئًا.

أمل أن يمد بعضهم إليه يدا، تحمل أية قروش ليبدأ متعته بأن يسكب بعض الماء في الكوب الزجاجي، يمررها علـى جدرانه، ثم يريقه علـى الأرض، يخفـض الكـوب، يميـل الإبريق العالي، يصنع قوسا متصلاً بني اللون من الشـراب المثلج، يقطعه تاركًا فقاقيع الهواء متزاحمة أعلى الكوب.

نظر إلى الأطفال من حوله، حصر عددهم، تأمل ملابسهم المتسخة البالية.. أقدامهم الحافية.. شعورهم المشوشة، أدرك أن الأمر لن يأتي بنقود، واصل رنينه النحاسي بفتور.

رفع رأسه إلى أعلى مجولاً بصره بين النوافذ والشرفات، بعض فتيات ونسوة يشاهدنه من أعلى.

أعاد إلى دقاته نظامها.. رنينها المنغوم، لعل "سبتًا" يـدلى حاملاً إناء به بعض القروش.



دس يده الحرة في جيبه الواسع، مـن القطـع المعدنيـة القليلة.. من ثقل الإبريق على ظهره، أدرك أن مـا جمعـه طوال يومه غير كاف.

لا يدري لماذا شعر بالراحة في هذا الشارع الضيق؛ ربما لأن شمس الشوارع الواسعة الحارقة لم تنجح في التسلل إلى هنا.

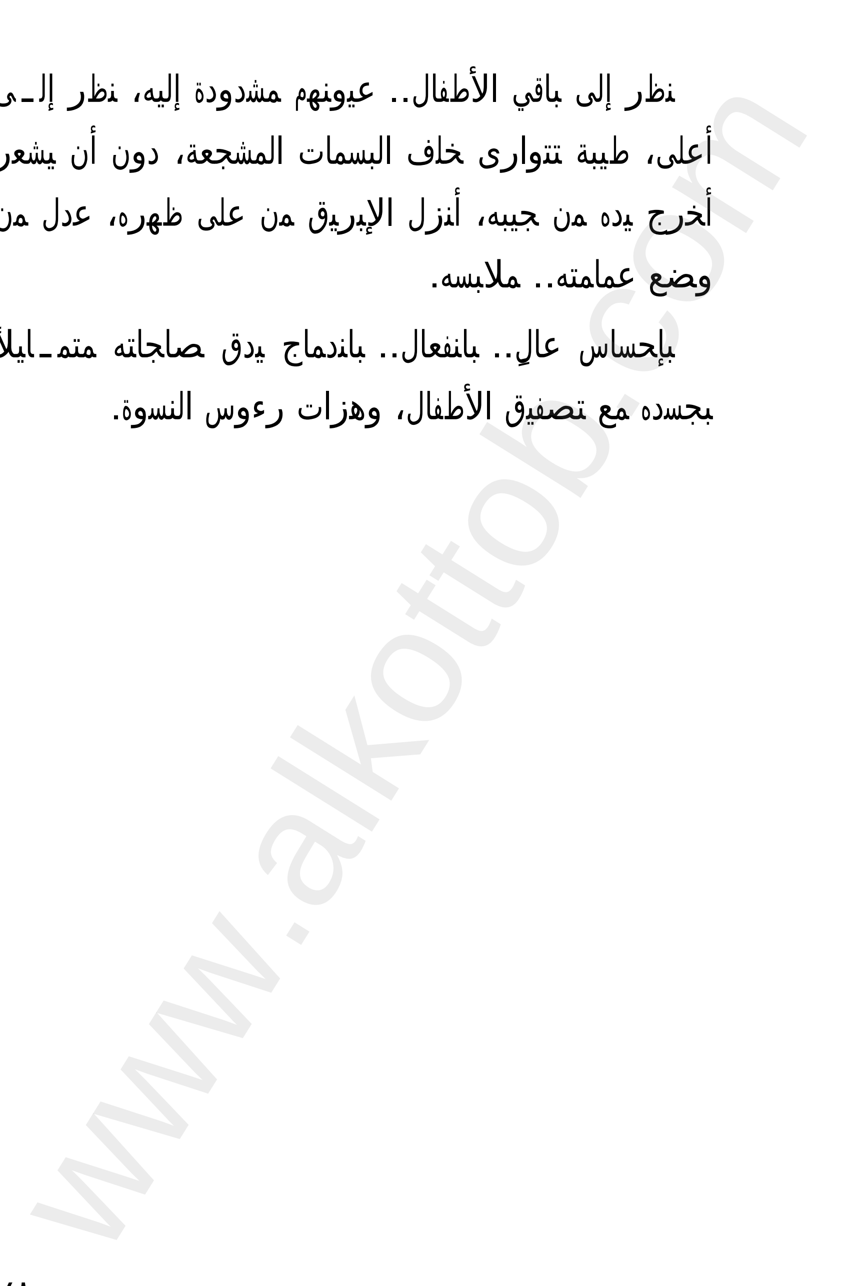
في وجوه الأطفال، في عيونهم، في طيبة الواقفـات فـي نوافذهن، شعر بالألفة الشديدة.

مرة أخرى رفع عينيه باحثًا عن "السبت" المنتظر، وجـد أعداد المتفرجين قد زادت كثيرا.

تضاعف عدد الأطفال حوله يتأملون ملابسـه الغريبـة.. إبريقه اللامع.. صاجاته الرنانة، يتطلعون إليه في دهشة.

ارتد إليه بصره عن وجوههم البريئة.. عن النوافذ، تمنى لو كانت لديه امرأة وأطفال.

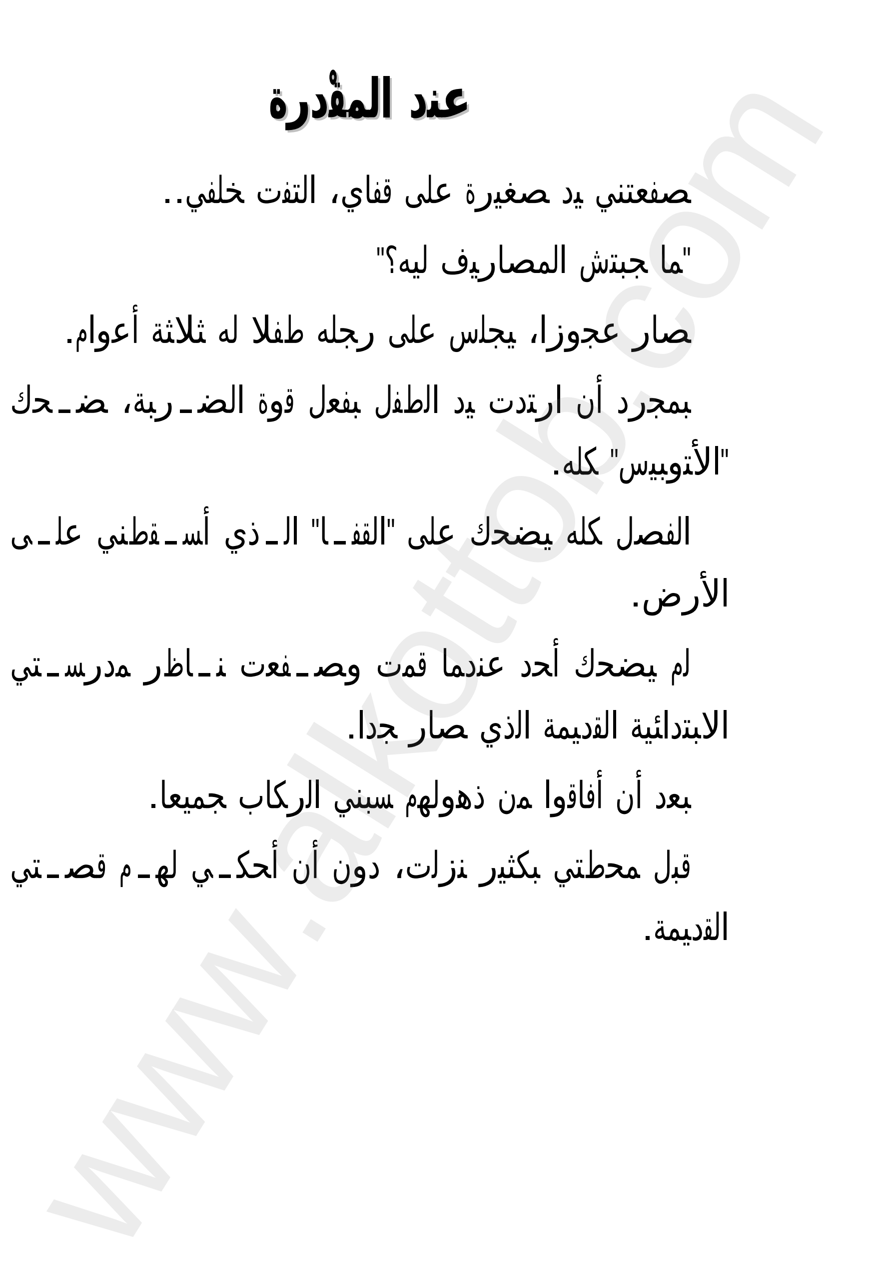
في يأس من الحصول على إضافة لما في جيبه الواسـع، هم بالسير، تعلقت صغيرة زرقاء العينين بسرواله الفضفاض، رجاء صامت في عينها يدعوه للبقاء.. للعزف.



نظر إلى باقي الأطفال.. عيونهم مشدودة إليه، نظر إلـى أعلى، طيبة تتوارى خلف البسمات المشجعة، دون أن يشعر أخرج يده من جيبه، أنزل الإبريق من على ظهره، عدل من وضع عمامته.. ملابسه.

بإحساس عالٍ.. بانفعال.. باندماج يدق صاجاته متمـايلاً بجسده مع تصفيق الأطفال، وهزات رءوس النسوة.

عند المقدرة



صفعتني يد صغيرة على قفاي، التفت خلفي..

"ما جبتش المصاريف ليه؟"

صار عجوزا، يجلس على رجله طفلا له ثلاثة أعوام.

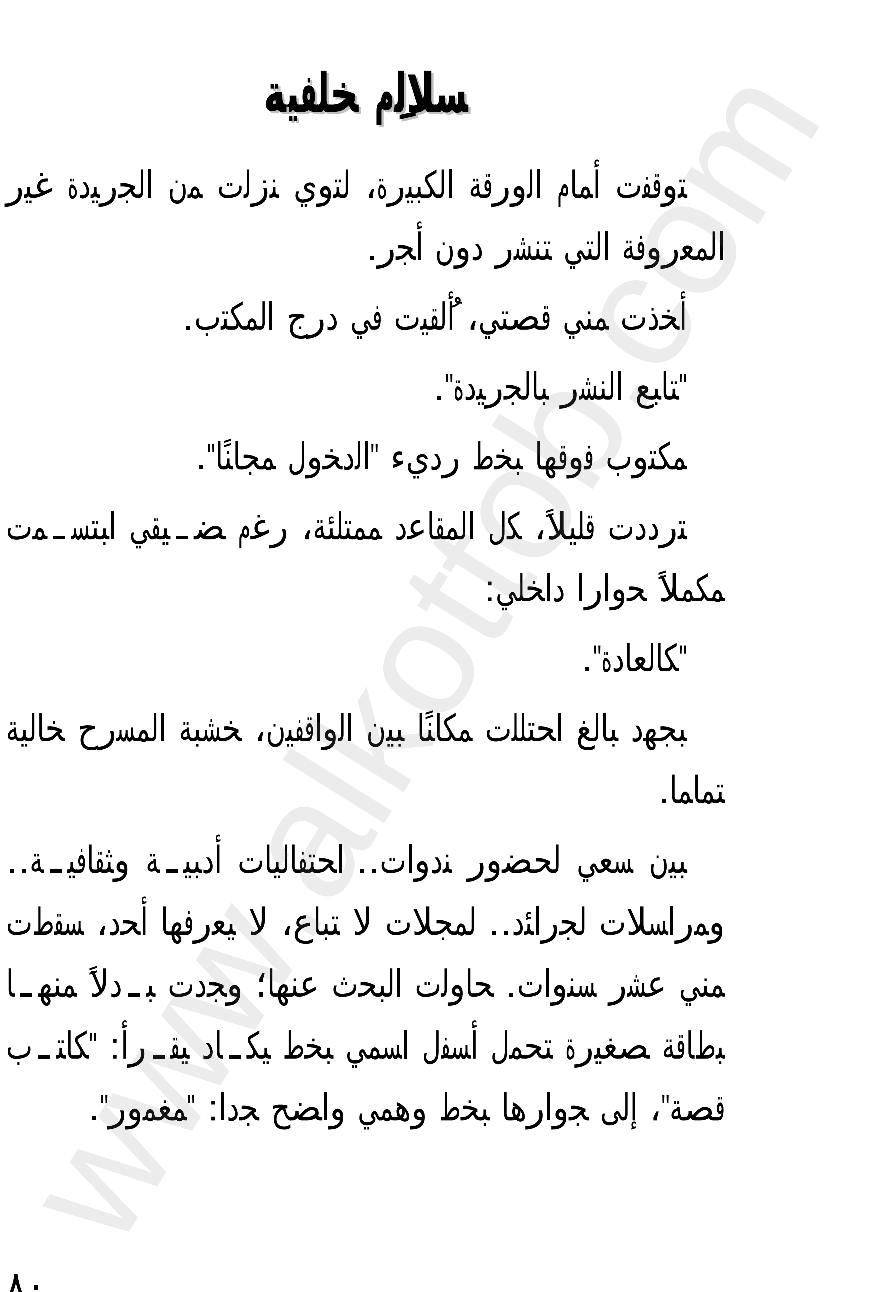
بمجرد أن ارتدت يد الطفل بفعل قوة الضربة، ضحك "الأتوبيس" كله.

الفصل كله يضحك على "القفا" الذي أسقطني على الأرض.

لم يضحك أحد عندما قمت وصفعت ناظر مدرستي الابتدائية القديمة الذي صار جدا.

بعد أن أفاقوا من ذهولهم سبني الركاب جميعا.

قبل محطتي بكثير نزلت، دون أن أحكي لهم قصتي القديمة.



سلالم خلفية

توقفت أمام الورقة الكبيرة، لتوي نزلت من الجريدة غير المعروفة التي تنشر دون أجر.

أخذت مني قصتي، أُلقيت في درج المكتب.

"تابع النشر بالجريدة".

مكتوب فوقها بخط رديء "الدخول مجانًا".

ترددت قليلاً، كل المقاعد ممتلئة، رغم ضـيقي ابتسـمت مكملاً حوارا داخلي:

"كالعادة".

بجهد بالغ احتللت مكانًا بين الواقفين، خشبة المسرح خالية تماما.

بين سعي لحضور ندوات.. احتفاليات أدبيـة وثقافيـة.. ومراسلات لجرائد.. لمجلات لا تباع، لا يعرفها أحد، سقطت مني عشر سنوات. حاولت البحث عنها؛ وجدت بـدلاً منهـا بطاقة صغيرة تحمل أسفل اسمي بخط يكـاد يقـرأ: "كاتـب قصة"، إلى جوارها بخط وهمي واضح جدا: "مغمور".

بعد كل نشر لي أهيئ نفسي للحصـول علـى "نوبـل". بابتساماتهم الخاضعة - قبلاً - للقوالب.. للمصطلحات التـي يتشدقون بها، يمنحني النقاد وسام فشل رفيع.

من الكتاب المغمورين أمثالي، أنتظر كلمات الثناء علـى عوالمي العبقرية، أجد أحدا لا يفهم ما يكتبه الآخرون.

لا تفتأ زوجتي تتهمني بالسفه؛ لإضاعتي وقتي ونقـودي على الجرائد.. الكتب.. الندوات.

أحيانًا أسائل نفسي:

"هل جانبها الصواب؟"

لكزني الواقف إلى جواري في كتفي، الجميع يصـفقون، وضعت الأوراق – بها عناوين الجرائد التي أراسلها – تحت إبطي.

حتى لا أبدو شاذًا؛ بدأت أصفق. الممثلون يخرجون تباعا لتلقي تحية النهاية.

التصفيق يزداد حِدة.. حرارة.

عندما مات زوجتي أمسكت بالجرائد والمجلات – التـي نشرت بها طوال عمر كتابتي – ونظفت زجاج النوافذ.

أخذ التصفيق شكلاً منغوما تتخلله الصـفارات الطويلـة، أعين الممثلين سعيدة تبرق، فوق ملامح كل مـنهم مكتـوب بخط كبير "مغمور".

تسللت من رأسي.. أوراقي.. ملابسي، بصدق.. بانفعال.. بحرارة.. بطفولية.. أصفق، النـاس يهللـون، يصـخبون، أصفق، لم يستطع الممثلون التحكم في سـعادتهم، يتقـافزون فوق المسرح، يرقصون على نغمات الجمهور.

يخرج بطل العرض، ملامحه تشبهني كثيرا، ضج الناس، هاجوا، تصايحوا، تقافزوا.

من على وجهه كلمة "مغمور" تسـقط، تتفتـت، تتنـاثر، تتلاشى. يصفقون.. يصفرون.. له.. لي. بأقصى ما أستطيع أصفق لنفسي.

كل هؤلاء قرءوا أعمالي، يصفقون، زوجتي تصفق، النقاد يصفرون.

أسقط الورق من تحت إبطي، يعوقني عن التصفيق.

بصعوبة أقاوم تدفق انفعالاتي؛ حتى لا أبكي.

انتبهت.. المكان خال تماما، في وسطه وحيـدا أصـفق لا أزال.

مسمار يشبك في قميصك

على طرف الحارة الضيقة يقف مربوطـًا مـن قائمتـه الأمامية بحبل طويل.

لا بد من مروري به مرتين على الأقل يوميا فـي أثنـاء ذهابي وإيابي من عملي.

لدى مروري يجري نحوي، رغم علمـي أنـه مربـوط أتراجع في سرعة متعثرة.

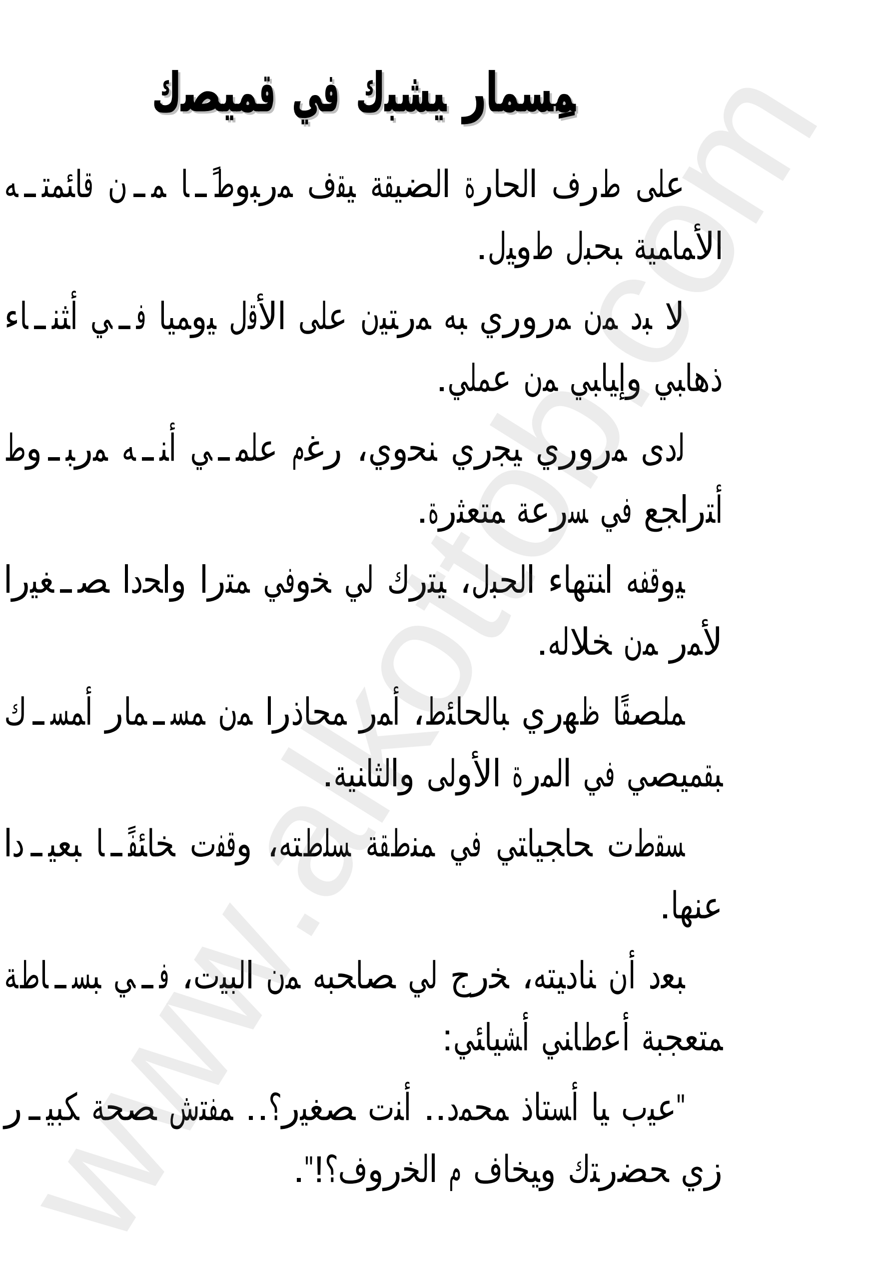
يوقفه انتهاء الحبل، يترك لي خوفي مترا واحدا صـغيرا لأمر من خلاله.

ملصقًا ظهري بالحائط، أمر محاذرا من مسـمار أمسـك بقميصي في المرة الأولى والثانية.

سقطت حاجياتي في منطقة سلطته، وقفت خائفًـا بعيـدا عنها.

بعد أن ناديته، خرج لي صاحبه من البيت، فـي بسـاطة متعجبة أعطاني أشيائي:

"عيب يا أستاذ محمد.. أنت صغير؟.. مفتش صحة كبيـر زي حضرتك ويخاف م الخروف؟!".



ارتديت جلبابي الأبيض، طاقيتي الشبيكة، خرجـت مـن بيتي أردد:

"ا أكبر كبيرا.. والحمد كثيرا".

في الصلاة.. كنت أستغفر كلما مأمأ في أذني.

عدت من الصلاة لأجد الأطفال متحلقين حولـه، وقفـت خلفهم، الجزار في وسط الحلقة، النسوة يتطلعن من النوافذ.

مضجع، ذاهل، عيناه تدوران في محجريهمـا، تتوقفـان قليلا لدى كل واحد.

على حافة عتبة بيتنا وأنا صغير، يحك صـبي الجـزار المدية.. يراها.. يمأمئ في رعب.. يجري نحوي.. ورائي.. يحصرني في مدخل البيت، ينطحني.. أصرخ.. ينطحنـي.. أسقط على الأرض، أبي والجزار يجذبانه، بقوائمه الرفيعـة يدوس علي.. يسقط كله فوقي.. أجرح في جبهتـي.. أمـي تصرخ.

الجزار ينحني عليه.. في رعب أزعق.. أصرخ:

"امسكوه جامد.. امسكوه جامد".

ضحكت النسوة والأطفال على الرجل الكبير الذي التصق بالحائط يصرخ في فزع.

"بسم ا وا أكبر".

انتشيتُ، ضحكت، تهللت عندما زينت بعـض القطـرات الحمراء الساخنة بياض جلبابي.

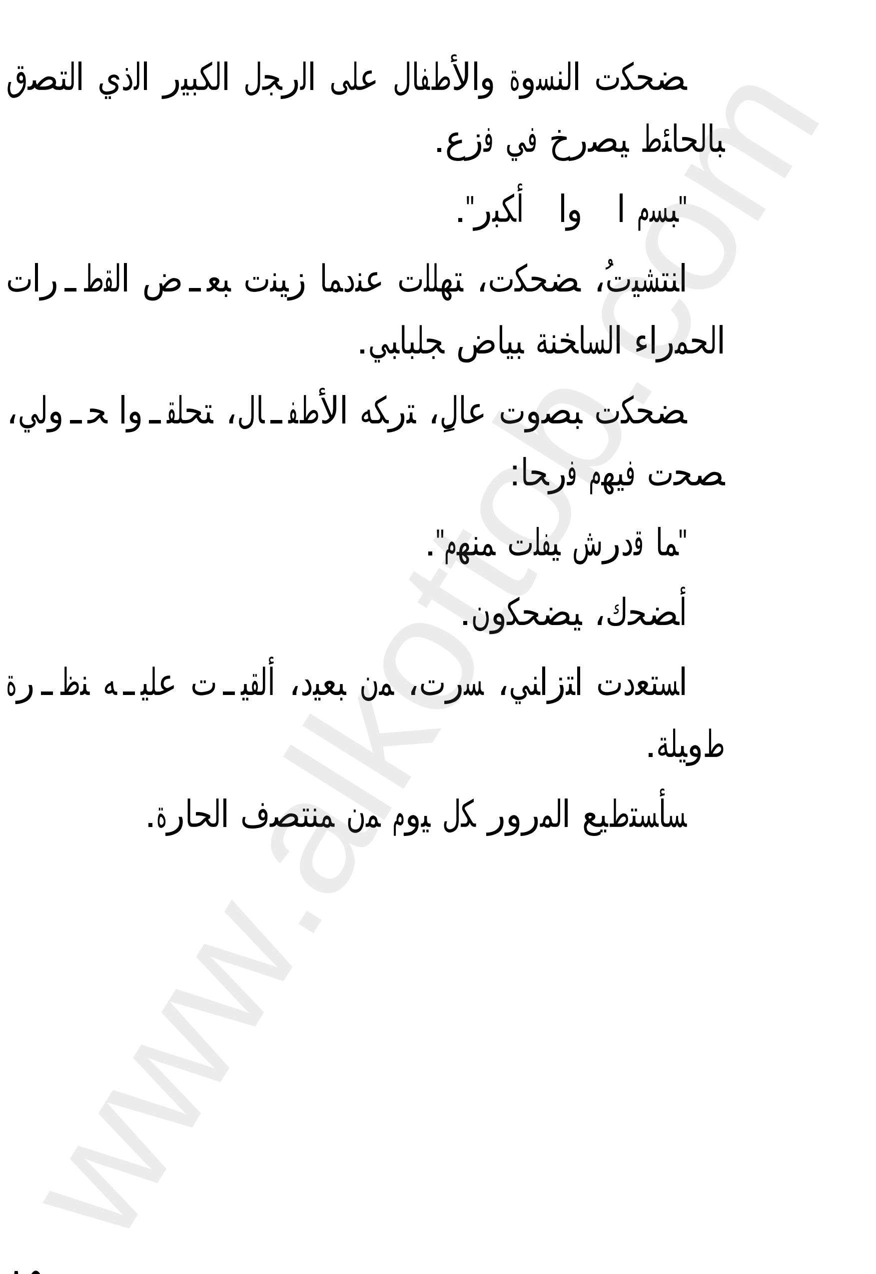
ضحكت بصوت عالٍ، تركه الأطفـال، تحلقـوا حـولي، صحت فيهم فرحا:

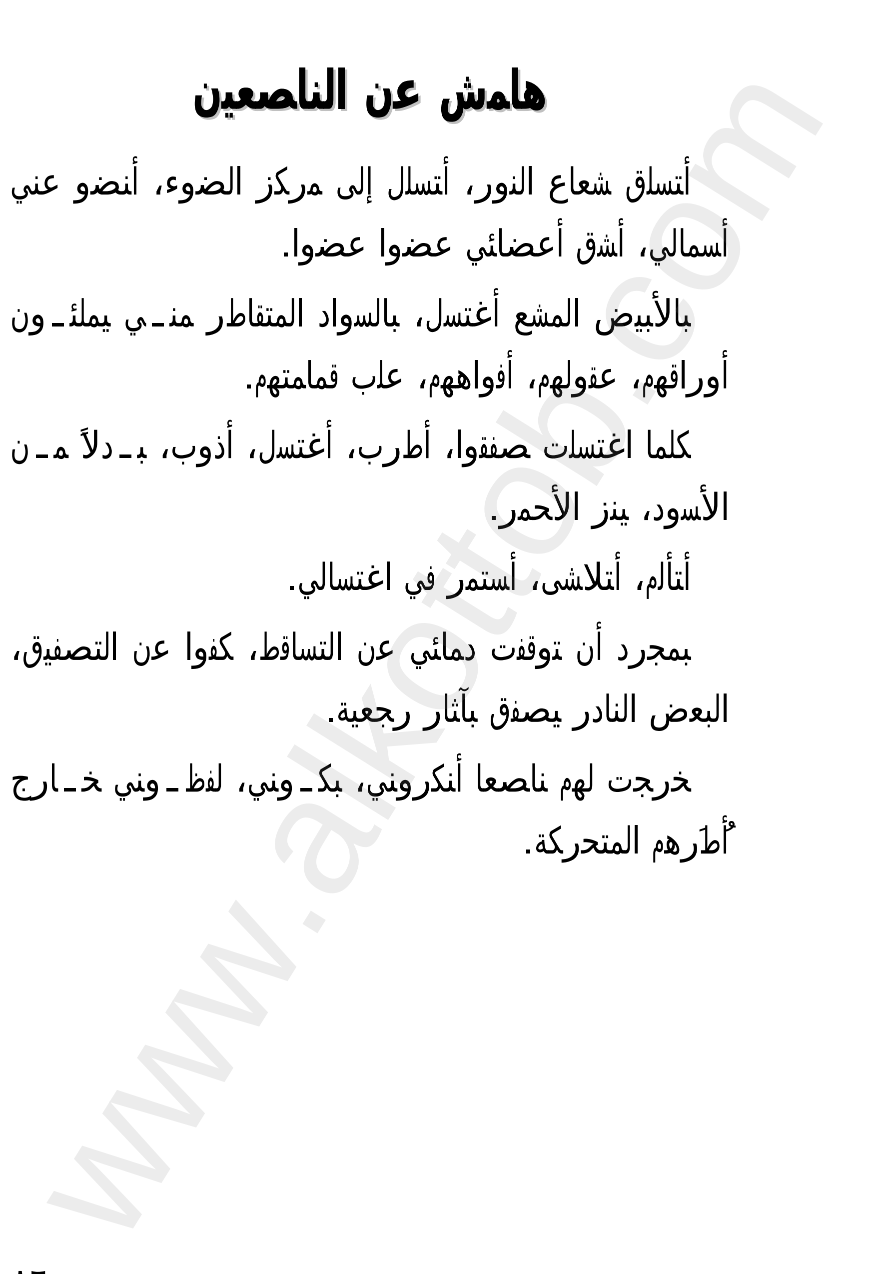
"ما قدرش يفلت منهم".

أضحك، يضحكون.

استعدت اتزاني، سرت، من بعيد، ألقيـت عليـه نظـرة طويلة.

سأستطيع المرور كل يوم من منتصف الحارة.





هامش عن الناصعين

أتسلق شعاع النور، أتسلل إلى مركز الضوء، أنضو عني أسمالي، أشق أعضائي عضوا عضوا.

بالأبيض المشع أغتسل، بالسواد المتقاطر مني يملئون أوراقهم، عقولهم، أفواههم، عاب قمامتهم.

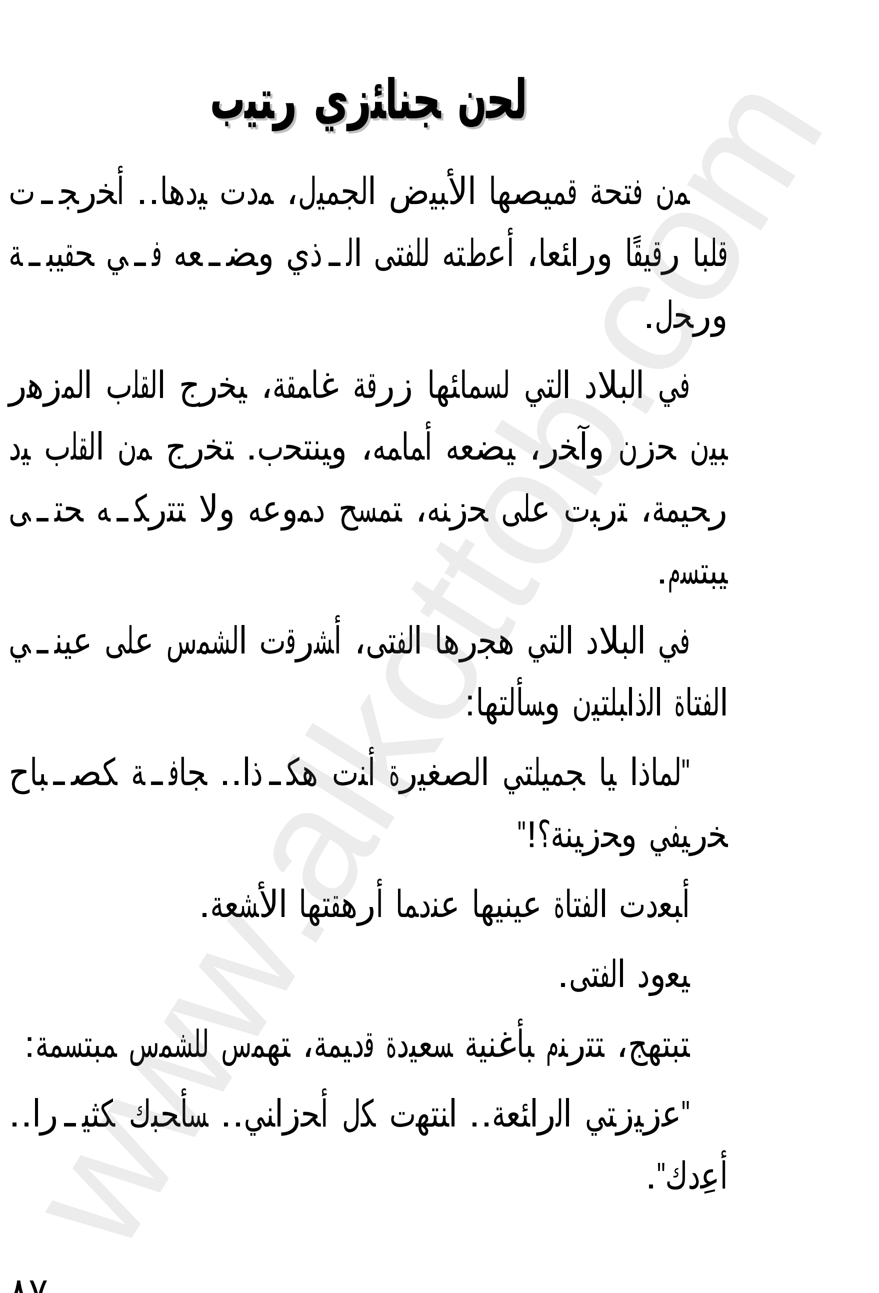
كلما اغتسلت صفقوا، أطرب، أغتسل، أذوب، بدلاً من الأسود، ينز الأحمر.

أتألم، أتلاشى، أستمر في اغتسالي.

بمجرد أن توقفت دمائي عن التساقط، كفوا عن التصفيق، البعض النادر يصفق بآثار رجعية.

خرجت لهم ناصعا أنكروني، بكوني، لفظوني خارج أُطَرهم المتحركة.

لحن جنائزي رتيب



من فتحة قميصها الأبيض الجميل، مدت يدها.. أخرجـت قلبا رقيقًا ورائعا، أعطته للفتى الـذي وضـعه فـي حقيبـة ورحل.

في البلاد التي لسمائها زرقة غامقة، يخرج القلب المزهر بين حزن وآخر، يضعه أمامه، وينتحب. تخرج من القلب يد رحيمة، تربت على حزنه، تمسح دموعه ولا تتركـه حتـى يبتسم.

في البلاد التي هجرها الفتى، أشرقت الشمس على عينـي الفتاة الذابلتين وسألتها:

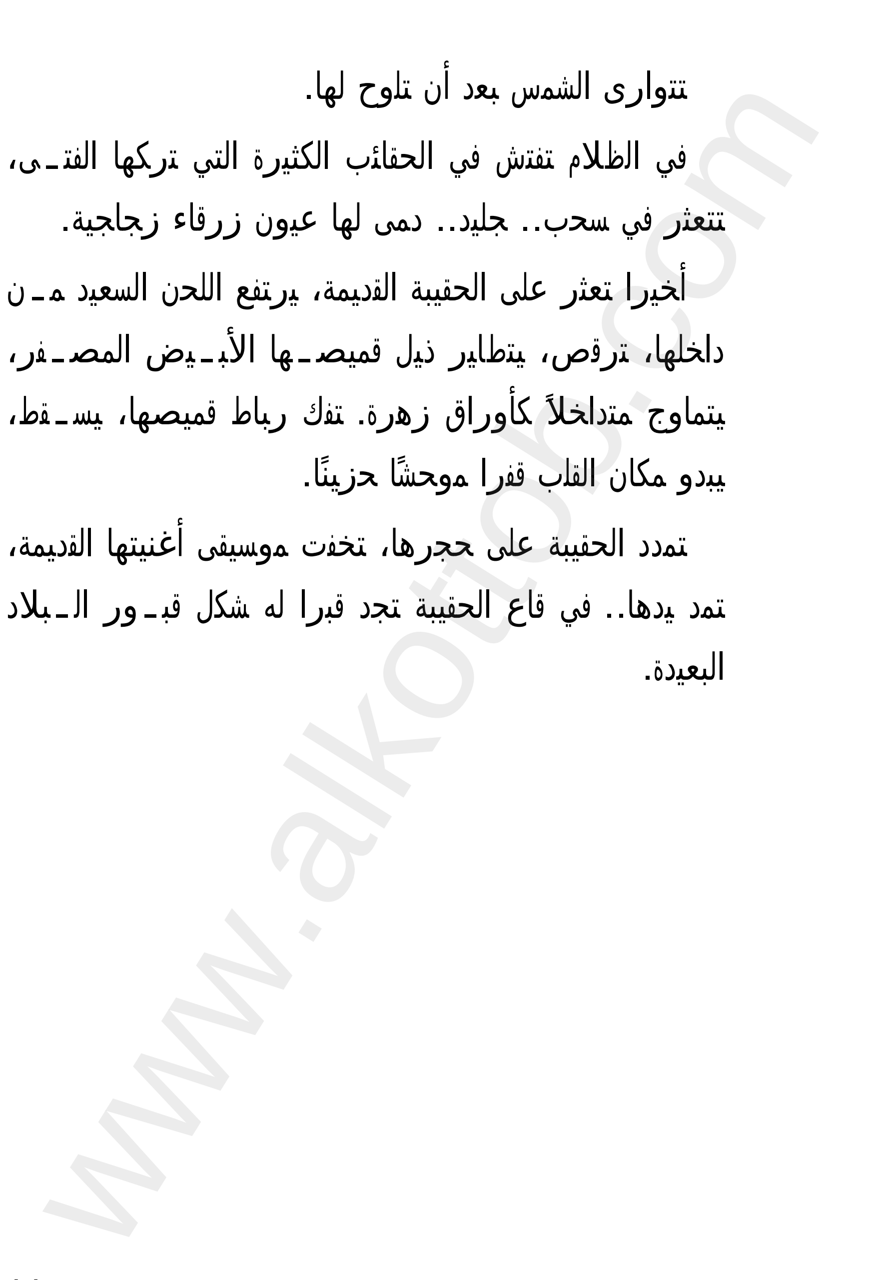
"لماذا يا جميلتي الصغيرة أنت هكـذا.. جافـة كصـباح خريفي وحزينة؟!"

أبعدت الفتاة عينيها عندما أرهقتها الأشعة.

يعود الفتى.

تبتهج، تترنم بأغنية سعيدة قديمة، تهمس للشمس مبتسمة:

"عزيزتي الرائعة.. انتهت كل أحزاني.. سأحبك كثيـرا.. أعِدك".



تتوارى الشمس بعد أن تلوح لها.

في الظلام تفتش في الحقائب الكثيرة التي تركها الفتـى، تتعثر في سحب.. جليد.. دمى لها عيون زرقاء زجاجية.

أخيرا تعثر على الحقيبة القديمة، يرتفع اللحن السعيد مـن داخلها، ترقص، يتطاير ذيل قميصـها الأبـيض المصـفر، يتماوج متداخلاً كأوراق زهرة. تفك رباط قميصها، يسـقط، يبدو مكان القلب قفرا موحشًا حزينًا.

تمدد الحقيبة على حجرها، تخفت موسيقى أغنيتها القديمة، تمد يدها.. في قاع الحقيبة تجد قبرا له شكل قبـور الـبلاد البعيدة.

الجحر.. مرةً ثانية

بصلصاله شكل حمامة.. كوخًا.. امرأة جميلة.. وبئرا.

عندما هم بأن يصنع للبئر حبلاً ودلوا، فتل خيوط الحبل.. ومات.

بصت الشمس بعينها الواسعة. نقرت الحمامة خد الأرض بحثًا عن الحب، دخلت المرأة ترتب الكوخ، فاضت البئر بالماء، فلم تكن ثمة حاجة للحبل أو الدلو.

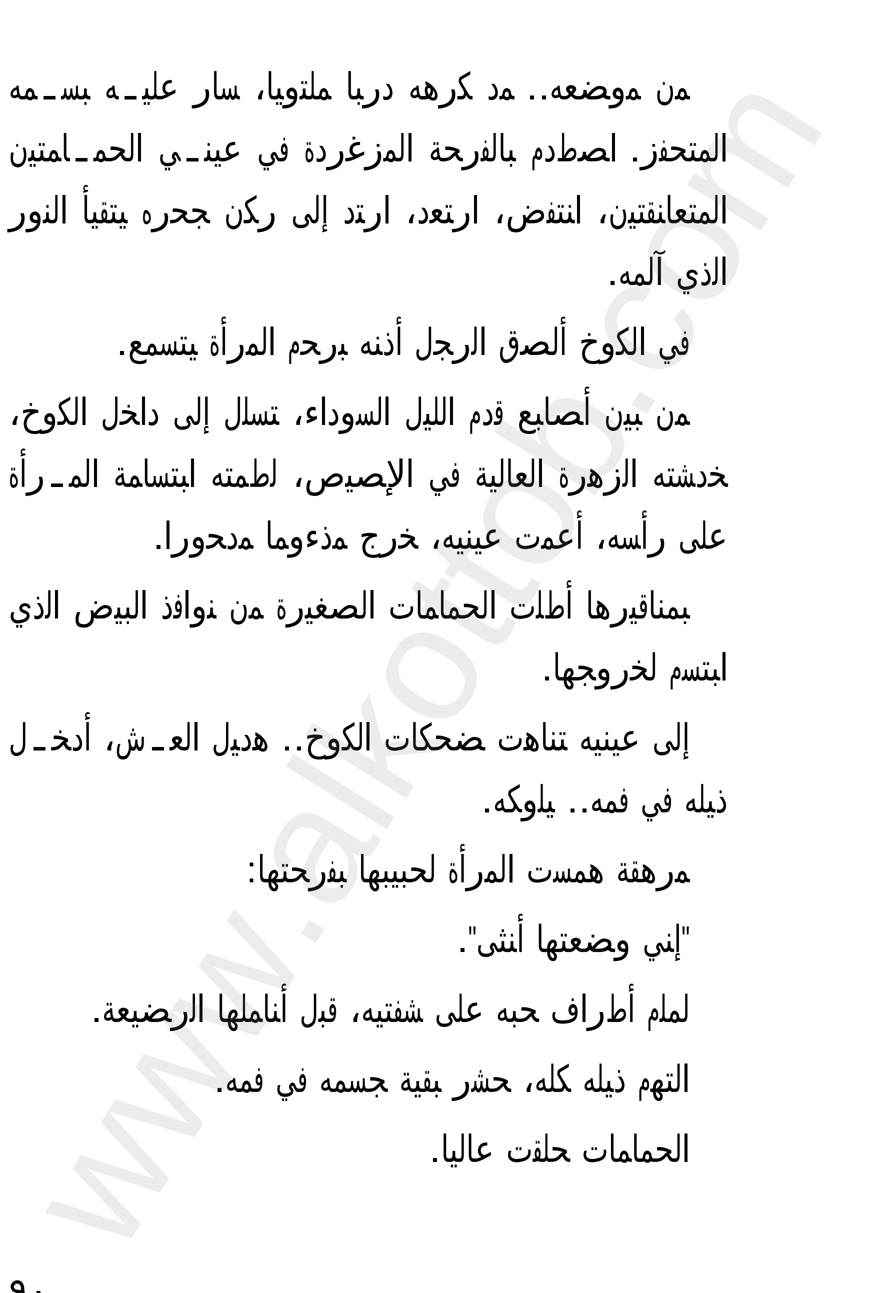
أغمضت الشمس عينها الدافئة. تلوى الحبل الرفيع ثعبانًا أزرق الناب.

طارت الحمامة بعيدا.. بعيدا.

عادت بإلف لها.. بزوج للمرأة.. ببساطٍ حريري وزهرة، زينت بهما المرأة الكوخ.

اتخذ له جحرا من الحقد، وافترشه عندما رأى ماء البئر يفيض على الأرض التي أنبتت حبا في منقاري الحمامتين، وعنبا تبادلته شفاه الحبيبين داخل الكوخ.

في العش رقد البيض الأبيض تحت الأم الفَرِحة.



من موضعه.. مد كرهه دربا ملتويا، سار عليـه بسـمه المتحفز. اصطدم بالفرحة المزغردة في عينـي الحمـامتين المتعانقتين، انتفض، ارتعد، ارتد إلى ركن جحره يتقيأ النور الذي آلمه.

في الكوخ ألصق الرجل أذنه برحم المرأة يتسمع.

من بين أصابع قدم الليل السوداء، تسلل إلى داخل الكوخ، خدشته الزهرة العالية في الإصيص، لطمته ابتسامة المـرأة على رأسه، أعمت عينيه، خرج مذءوما مدحورا.

بمناقيرها أطلت الحمامات الصغيرة من نوافذ البيض الذي ابتسم لخروجها.

إلى عينيه تناهت ضحكات الكوخ.. هديل العـش، أدخـل ذيله في فمه.. يلوكه.

مرهقة همست المرأة لحبيبها بفرحتها:

"إني وضعتها أنثى".

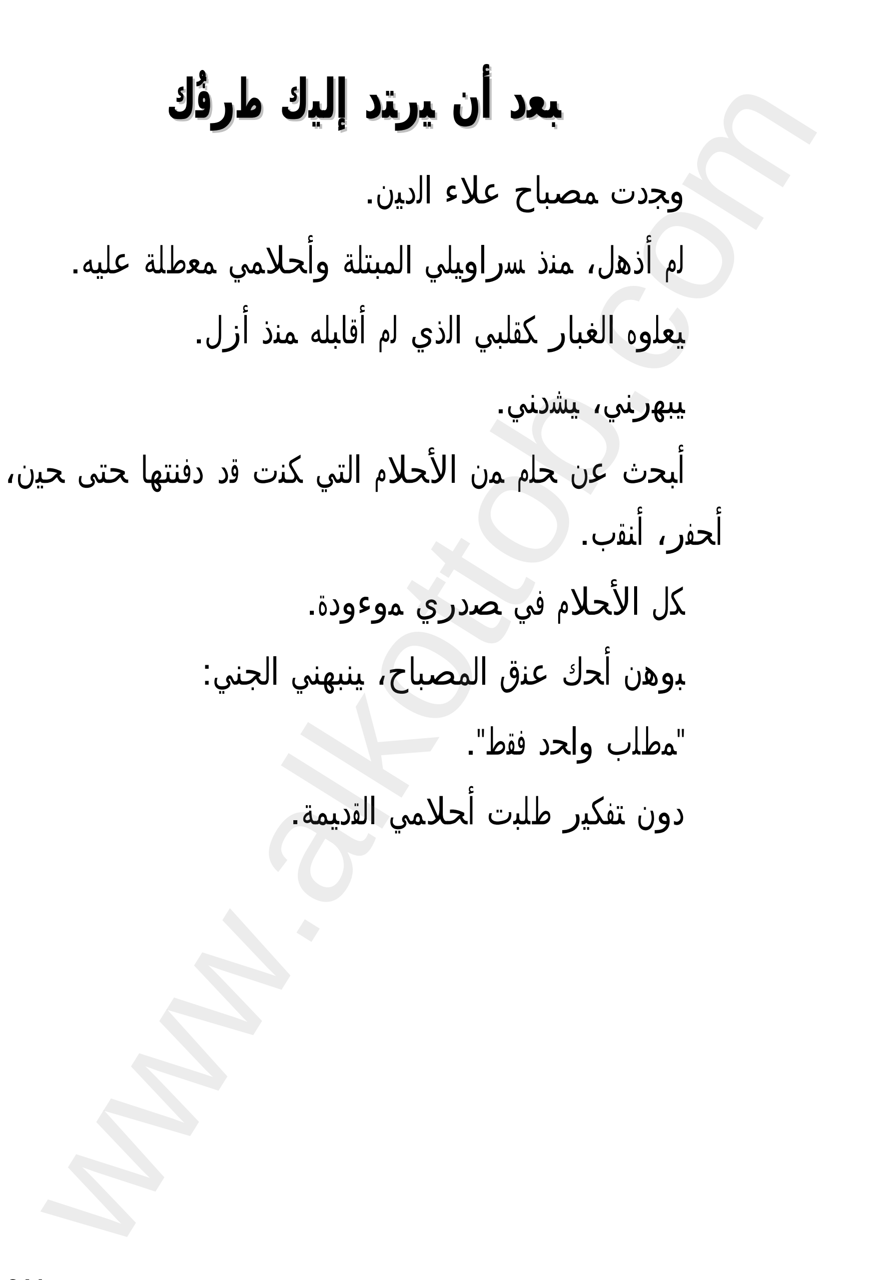
لملم أطراف حبه على شفتيه، قبل أناملها الرضيعة.

التهم ذيله كله، حشر بقية جسمه في فمه.

الحمامات حلقت عاليا.



من نومها قامت الشمس متثائبة، فتحت عينها على فتحـة الجحر متهدمة على فكين يابستين مفتوحتين.



بعد أن يرتد إليك طرفُك

وجدت مصباح علاء الدين.

لم أذهل، منذ سراويلي المبتلة وأحلامي معطلة عليه.

يعلوه الغبار كقلبي الذي لم أقابله منذ أزل.

يبهرني، يشدني.

أبحث عن حلم من الأحلام التي كنت قد دفنتها حتى حين، أحفر، أنقب.

كل الأحلام في صدري موءودة.

بوهن أحك عنق المصباح، ينبهني الجني:

"مطلب واحد فقط".

دون تفكير طلبت أحلامي القديمة.